الفصل الأول

الشتاء النووي

استيقظت نورا قبل أن يرنّ أي جرس.

لم يكن هناك جرس أصلًا. منذ سنوات طويلة توقفت كل الساعات الكهربائية عن العمل، وبقيت الساعات اليدوية القليلة تدور ببطء كأنها تتعمد إطالة الوقت. استندت بمرفقيها إلى الحافة الباردة للسرير الحديدي، ونظرت من النافذة المكسورة التي غطّتها بقطعة بلاستيك شفافة مهترئة.

السماء كانت رمادية.

ليست رمادية الصباح العادي، ولا رمادية الغيم المطر. كانت رمادية كثيفة، ثقيلة، كأنها سقف مصنوع من رماد قديم لا يريد أن يتحرك. لم ترَ نورا الشمس الحقيقية منذ كانت في التاسعة من عمرها. تتذكر فقط لونًا أصفر باهتًا كان يظهر أحيانًا خلف السحب، ثم اختفى تمامًا بعد القنبلة الثالثة.

الآن هي في السادسة عشرة، أو ربما السابعة عشرة. لم يعد أحد يحتفل بأعياد الميلاد.

الغرفة التي تنام فيها كانت في الطابق الثالث من المبنى الوحيد المتبقي تقريبًا لشركة «الأمل». أربعة جدران متشققة، وثمانية أسرة حديدية مرتبة في صفّين، ورائحة دائمة من الغبار الإشعاعي المختلط بعرق النساء وصابون الغسيل الرديء. على الجدار المقابل علّقت إحداهنّ صورة قديمة لشاطئ أزرق، لكنها بهتت حتى صار البحر فيها رماديًا أيضًا.

نهضت نورا بهدوء كي لا توقظ الأخريات. مرّت أصابعها على خدّها الأيمن دون أن تقصد. الجلد هناك خشن ومتموّج، مثل سطح حجر تعرّض لنار شديدة ثم برد فجأة. الحروق انتشرت في أول أيام الحرب، حين كانت لا تزال طفلة صغيرة تلعب في الشارع. لم تعد تتذكر الألم، لكنها تتذكر صوت أمها وهي تصرخ، ثم صمت أمها إلى الأبد.

عند حافة السرير، داخل علبة معدنية صدئة، كانت صورتها الوحيدة الباقية لوالدها.

رجل في الأربعين، يبتسم، ويرتدي زيًّا رماديًا أنيقًا. شعره أسود، وعيناه واسعتان، ويداه موضوعتان على كتفي طفلة صغيرة لم تكن قد تشوّهت بعد. نورا حدّقت في الصورة وقتًا طويلًا، كما تفعل كل صباح. ثم همست لنفسها السؤال الذي لم تجرؤ على طرحه بصوت عالٍ منذ سنوات:

«متى رأيتُ رجلًا آخر؟»

لم تجد إجابة.

من الخارج جاءت أصوات خافتة: نساء يمشين في الممرات، يفتحن صنابير المياه الرصاصية التي بالكاد تخرج منها قطرات باردة، ويتهامسن عن اليوم الجديد. لم يكن هناك رجال في الأصوات. لم يكن هناك رجال في أي مكان.

ارتدت نورا بنطلونًا قديمًا ومعطفًا رماديًا أكبر من حجمها، وخرجت إلى الممر الطويل. النوافذ كلها مكسورة أو مغطاة بألواح خشب. في نهاية الممر كانت لافتة قديمة مكتوب عليها بخط باهت: «شركة الأمل – قسم الإلكترونيات المتقدمة». تحتها كتب أحدهم بقلم أسود جاف: «الأمل مات».

ابتسمت نورا ابتسامة صغيرة بلا فرح، ومسحت الجملة بكمّ معطفها، ثم واصلت المشي.

في الخارج كانت المدينة تبدو كهيكل عظمي ضخم نسيه أحدهم تحت سماء رمادية لا تنتهي. الشوارع مليئة بالأنقاض، والرياح الباردة تحمل معها دائمًا رائحة معدنية خفيفة، كأن الهواء نفسه صدئ. بعيدة، على الأفق، كانت رافعات صدئة ثابتة في أماكنها منذ سنوات، كأنها تنتظر أوامر لن تأتي أبدًا.

نورا توقفت لحظة عند مدخل المبنى، ورفعت رأسها إلى السماء.

تساءلت، للمرة الألف، إن كان هناك أحد في الأعلى ينظر إليهم.

ثم دخلت من جديد إلى الظلام الرمادي لشركة «الأمل»، حيث كانت النساء ينتظرن يومًا آخر في عالم بلا رجال.

الفصل الثاني

شركة الأمل

كانت شركة «الأمل» في يوم من الأيام أكبر مصنع للإلكترونيات المتقدمة في المدينة.

الآن هي مجرد هيكل إسمنتي متصدع، يضم أربعة طوابق فقط من أصل اثني عشر، وتحيط به أنقاض المباني المجاورة كأنها قبور قديمة. اللافتة الكبيرة فوق المدخل الرئيسي سقط نصفها منذ سنوات، وبقي الجزء المكتوب عليه «الأمل» معلقًا بزاوية مائلة، كأن الكلمة نفسها تتعب من الوقوف.

دخلت نورا من الباب الجانبي، حيث كانت الحراسة شكلية منذ زمن طويل. لم يعد هناك ما يُسرق، ولم يعد هناك من يسرق. في الردهة الواسعة التي كانت يومًا ما لامعة، جلست عشرات النساء خلف مكاتب قديمة، يصلحون لوحات إلكترونية صغيرة أو ينسخون بيانات على أوراق صفراء. الصوت الوحيد المسموع كان طقطقة الأدوات المعدنية وصفير الأجهزة القديمة التي تعمل بالكاد.

نورا اتجهت مباشرة إلى قسم الأرشيف في الطابق الأرضي. الغرفة كانت باردة ورطبة، مليئة بالخزائن الحديدية الطويلة التي تمتد من الأرض إلى السقف. على كل خزانة ملصقات باهتة: «سجلات الموظفين – قبل الحرب»، «تقارير الصيانة الآلية – السنة الثالثة»، «مشاريع سرية – مستوى أمني مرتفع». معظم الملصقات الأخيرة كانت مطموسة بالحبر الأسود.

خلف أحد المكاتب الكبيرة جلست امرأة في الخمسين من عمرها، شعرها الرمادي مربوط بإحكام، ووجهها خالٍ من أي تعبير. كانت ترتدي ثوبًا رماديًا طويلًا بلا زخرفة، تمامًا كما تفعل كل يوم منذ سبع سنوات. رئيسة مجلس إدارة شركة «الأمل»، السيدة سعاد عبد الرحمن.

رفعت رأسها عندما دخلت نورا، ونظرت إليها بعينين رماديتين لا تقل صلابة عن السماء في الخارج.

– تأخرتِ ثلاث دقائق.

نورا خفضت رأسها.

– آسفة يا سيدتي. كانت المياه بطيئة هذا الصباح.

سعاد لم تعلق. أشارت بيدها إلى كومة من الملفات على الطرف الآخر من المكتب.

– هذه تحتاج إلى تصنيف قبل الظهر. أي ملف يحمل ختمًا أحمر يُرفع إليّ مباشرة. لا تفتحيه. لا تقرئيه. فقط أرسله.

نورا حملت الملفات وذهبت إلى ركنها المعتاد قرب النافذة المغطاة. جلست على الكرسي الخشبي المتين، وبدأت العمل. كانت تعرف أن الختم الأحمر يعني شيئًا ممنوعًا، وأن الفضول في هذا المكان قد يكون أخطر من الإشعاع.

في الزاوية البعيدة من الغرفة جلست امرأة عجوز أمام آلة كاتبة يدوية قديمة. السيدة فوزية، التي تجاوزت السبعين، كانت تطبع ببطء شديد، حرفًا حرفًا، كأن كل ضغطة مفتاح تكلفها جهدًا كبيرًا. ساقها اليمنى مشوهة بسبب الإشعاع، وكانت تتحرك بعكاز خشبي صنعته بنفسها من بقايا الأثاث.

عندما مرت نورا بجانبها لتضع ملفًا في الخزانة، رفعت فوزية رأسها وابتسمت ابتسامة صغيرة متشققة.

– صباح الخير يا ابنتي. السماء اليوم أشد رماديًا من أمس، أليس كذلك؟

نورا أومأت.

– نعم يا خالة فوزية.

العجوز أدارت رأسها نحو النافذة، كأنها ترى شيئًا لا يراه الآخرون.

– في أيامي كانت السماء زرقاء. وكان الرجال يأتون إلى العمل في الصباح، يضحكون، ويشربون الشاي معًا. الآن... لم يعد أحد يضحك كما ينبغي.

صمتت لحظة، ثم أضافت بصوت منخفض:

– وأنا ما زلت أتذكر أصواتهم.

نورا شعرت بشيء بارد يمر في صدرها. ابتسمت ابتسامة مهذبة وعدت إلى مكتبها. لكنها طوال الساعة التالية لم تستطع التوقف عن التفكير في جملة السيدة فوزية.

«وأنا ما زلت أتذكر أصواتهم».

في العاشرة صباحًا دخلت مجموعة من الفتيات الأصغر سنًا يحملن صناديق معدنية صغيرة. كنّ يعملن في قسم الصيانة الآلية، في الطابق الثاني، حيث تُصلَح الروبوتات القديمة التي لم تعد تُستخدم في الحرب. إحدى الفتيات، واسمها ليلى، اقتربت من نورا وهمست:

– هل سمعتِ الشائعة؟ يقولون إنهم سيقيمون استعراضًا كبيرًا قريبًا. استعراض النصر.

نورا رفعت رأسها ببطء.

– نصر على من؟

ليلى هزت كتفيها.

– لا أعرف. لكنهم يقولون إن العدو استسلم أخيرًا. وإن كل شيء سيتغير.

من الجهة الأخرى من الغرفة سمعت السيدة سعاد الهمس. رفعت رأسها ونظرت إليهما نظرة طويلة باردة، فابتعدت ليلى بسرعة.

نورا عادت إلى الملفات. فتحت واحدًا منها بالصدفة، وكان بدون ختم أحمر. داخل الورقة الأولى كانت صورة باهتة لرجل يرتدي زيًّا عسكريًا، يقف بجانب روبوت ضخم أسود. تحت الصورة كُتب بخط يدوي قديم:

«الوحدة القتالية الآلية – النموذج السابع. لم يعد العنصر البشري ضروريًا في الخطوط الأمامية».

أغلقت نورا الملف بسرعة، وشعرت أن قلبها ينبض أسرع مما ينبغي.

رفعت رأسها نحو السيدة سعاد، التي كانت تكتب شيئًا بهدوء شديد على ورقة بيضاء. ثم نظرت إلى السيدة فوزية، التي ما زالت تطبع على آلتها القديمة كأنها تحاول أن تكتب صوتًا لم يعد موجودًا.

خارج النافذة، كانت السماء الرمادية ثقيلة كما هي كل يوم.

وفي داخل شركة «الأمل»، كان العمل يستمر كالعادة.

كأن الرجال لم يختفوا أصلًا.

الفصل الثالث

الذكريات المقطعة

في ساعة الغداء لم تكن هناك غرفة طعام حقيقية.

كانت النساء يجلسن على الدرجات الإسمنتية الباردة في نهاية الممر الطويل، أو يقفن قرب النوافذ المكسورة وهنّ يمسكن أكوابًا معدنية صغيرة فيها شاي خفيف اللون وطعم معدني. الطعام كان دائمًا هو نفسه منذ سنوات: خبز جاف، قطعة جبن باهتة، وأحيانًا حبة فاكهة معلبة إذا سمحت المخازن.

نورا جلست على الدرجة الثالثة، واضعة كوبها بين يديها. بجانبها جلست ليلى، الفتاة التي تعمل في قسم الصيانة، وشعرها الأسود القصير يغطي جزءًا من جبينها. على الجانب الآخر جلست امرأتان في الثلاثينيات، اسمهما سماح ومنى، كنّ يتهامسن منذ دقائق.

قالت سماح فجأة، بصوت أعلى مما ينبغي:

– أنا لا أصدق أنهم ماتوا جميعًا.

صمت الجميع لحظة. حتى السيدة فوزية، التي كانت تجلس في أسفل الدرج على كرسيها الخشبي، رفعت رأسها.

أردفت سماح، وهي تنظر إلى كوبها:

– أبي كتب لي رسالة في السنة الثانية. قال إنه بخير، وإنهم ينقلونه إلى وحدة جديدة. ثم انقطعت الرسائل. هذا لا يعني أنه مات.

منى هزت رأسها ببطء.

– الرسائل انقطعت عند الجميع في الوقت نفسه تقريبًا. أتذكرين؟ في الشهر السادس من السنة الثالثة. فجأة صارت صناديق البريد فارغة.

ليلى قالت بصوت خافت:

– أمي كانت تنتظر رسالة من أخي كل أسبوع. كانت تقف عند الباب من الصباح حتى المساء. ثم توقفت عن الانتظار. قالت لي يومًا: «لو كان حيًا لكتب».

نورا لم تتكلم. كانت تحدق في الشاي الذي لم تعد تتذوقه. في داخلها كانت الذكريات تأتي متقطعة، كصور باهتة تطفو ثم تغرق.

أتذكر يوم جاءوا ليأخذوا الرجال.

كان صباحًا عاديًا في السنة الأولى. شاحنات كبيرة صفراء وُقفت أمام المباني. رجال بزي رمادي يقرأون أسماء من قوائم طويلة. أبوها قبلها على جبينها وقال: «سأعود بعد أسبوعين». ابتسم، ومشى. لم يعد.

ثم جاءت المرحلة الثانية، بعد سنتين. لم يعودوا يأخذونهم بالشاحنات. صاروا يرسلون أوراقًا رسمية: «تم استدعاؤك للانضمام إلى الوحدات الآلية المتقدمة». الرجال يذهبون بأنفسهم، وهم يحملون حقائب صغيرة. بعضهم كان يضحك ويقول إن الروبوتات ستقوم بكل شيء، وإنهم سيعودون أبطالًا.

ثم انقطعت الأخبار تمامًا.

السيدة فوزية سعلت سعلة جافة، ثم قالت بصوتها المتشقق:

– في أيامي كان الرجل إذا ذهب إلى الحرب يكتب رسالة كل شهر على الأقل. حتى لو كانت الرسالة كلمة واحدة: «أنا حي». الآن... حتى الكلمة الواحدة اختفت.

سامح رفعت رأسها بغضب مكتوم.

– ربما هم في مكان بعيد. ربما الحرب انتهت هناك وهم لا يستطيعون العودة بعد. الشتاء النووي جعل الطرق مستحيلة.

منى ردت بهدوء مر:

– الطرق مستحيلة منذ خمس سنوات. والطائرات الآلية تطير كل يوم فوق رؤوسنا. لو أرادوا العودة لعادوا.

صمت ثقيل هبط على الدرجات. في الخارج كانت الرياح تدفع الغبار الإشعاعي الخفيف على الزجاج المكسور، فيصدر صوتًا خافتًا كحفيف أوراق ميتة.

ليلى همست فجأة:

– سمعتُ في قسم الصيانة شيئًا غريبًا. أحد الروبوتات القديمة التي نصلحها... كان فيه تسجيل صوتي. صوت رجل. يقول: «لم نعد ضروريين». ثم ينقطع التسجيل.

الجميع نظروا إليها.

نورا شعرت ببرودة تسري في يديها رغم الكوب الساخن.

سألت بصوت منخفض:

– هل أخبرتِ السيدة سعاد؟

ليلى هزت رأسها بسرعة.

– لا. لا أحد يجرؤ. الملفات التي تحمل الختم الأحمر... تقول الشائعات إنها تتحدث عن هذا بالضبط. عن اليوم الذي قرروا فيه أن العنصر البشري في الجيوش أصبح... عبئًا.

السيدة فوزية أغمضت عينيها لحظة، ثم فتحتهما ونظرت إلى نورا تحديدًا.

– أنتنّ صغيرات. لا تتذكرن كيف كان الصوت عندما يمتلئ المكان بالرجال. الضحك الخشن، والخطوات الثقيلة، ورائحة العطر الرخيص مختلطة بالزيت والدخان. الآن المكان نظيف جدًا. هادئ جدًا. كأن أحدهم مسح كل شيء بقطعة قماش رمادية كبيرة.

نورا ابتلعت ريقها.

في داخلها كانت صورة والدها تعود من جديد. الرجل الذي يبتسم في الصورة القديمة. تساءلت إن كان قد قال يومًا الجملة نفسها التي سمعتها ليلى في التسجيل:

«لم نعد ضروريين».

أنهت النساء غداءهن في صمت. وقفن واحدة تلو الأخرى وعدن إلى أماكنهن. نورا بقيت جالسة على الدرجة بضع دقائق إضافية، تنظر إلى الممر الفارغ الطويل.

في نهاية الممر كانت لافتة قديمة أخرى، مكتوب عليها بخط باهت:

«معًا نبني المستقبل».

تحت اللافتة كان الغبار قد رسم شكل قدمين كبيرتين، كأثر شخص مرّ من هنا منذ زمن بعيد ثم اختفى.

نورا مسحت الأثر بطرف حذائها، ثم نهضت وعادت إلى قسم الأرشيف.

خلفها، على الدرجات الباردة، بقي صوت السيدة فوزية يهمس لنفسها كأنها تتحدث إلى شخص غير موجود:

– أنا ما زلت أتذكر أصواتهم... حتى لو نسيها الجميع.

الفصل الثالث

الذكريات المقطعة

في ساعة الغداء لم تكن هناك غرفة طعام حقيقية.

كانت النساء يجلسن على الدرجات الإسمنتية الباردة في نهاية الممر الطويل، أو يقفن قرب النوافذ المكسورة وهنّ يمسكن أكوابًا معدنية صغيرة فيها شاي خفيف اللون وطعم معدني. الطعام كان دائمًا هو نفسه منذ سنوات: خبز جاف، قطعة جبن باهتة، وأحيانًا حبة فاكهة معلبة إذا سمحت المخازن.

نورا جلست على الدرجة الثالثة، واضعة كوبها بين يديها. بجانبها جلست ليلى، الفتاة التي تعمل في قسم الصيانة، وشعرها الأسود القصير يغطي جزءًا من جبينها. على الجانب الآخر جلست امرأتان في الثلاثينيات، اسمهما سماح ومنى، كنّ يتهامسن منذ دقائق.

قالت سماح فجأة، بصوت أعلى مما ينبغي:

– أنا لا أصدق أنهم ماتوا جميعًا.

صمت الجميع لحظة. حتى السيدة فوزية، التي كانت تجلس في أسفل الدرج على كرسيها الخشبي، رفعت رأسها.

أردفت سماح، وهي تنظر إلى كوبها:

– أبي كتب لي رسالة في السنة الثانية. قال إنه بخير، وإنهم ينقلونه إلى وحدة جديدة. ثم انقطعت الرسائل. هذا لا يعني أنه مات.

منى هزت رأسها ببطء.

– الرسائل انقطعت عند الجميع في الوقت نفسه تقريبًا. أتذكرين؟ في الشهر السادس من السنة الثالثة. فجأة صارت صناديق البريد فارغة.

ليلى قالت بصوت خافت:

– أمي كانت تنتظر رسالة من أخي كل أسبوع. كانت تقف عند الباب من الصباح حتى المساء. ثم توقفت عن الانتظار. قالت لي يومًا: «لو كان حيًا لكتب».

نورا لم تتكلم. كانت تحدق في الشاي الذي لم تعد تتذوقه. في داخلها كانت الذكريات تأتي متقطعة، كصور باهتة تطفو ثم تغرق.

أتذكر يوم جاءوا ليأخذوا الرجال.

كان صباحًا عاديًا في السنة الأولى. شاحنات كبيرة صفراء وُقفت أمام المباني. رجال بزي رمادي يقرأون أسماء من قوائم طويلة. أبوها قبلها على جبينها وقال: «سأعود بعد أسبوعين». ابتسم، ومشى. لم يعد.

ثم جاءت المرحلة الثانية، بعد سنتين. لم يعودوا يأخذونهم بالشاحنات. صاروا يرسلون أوراقًا رسمية: «تم استدعاؤك للانضمام إلى الوحدات الآلية المتقدمة». الرجال يذهبون بأنفسهم، وهم يحملون حقائب صغيرة. بعضهم كان يضحك ويقول إن الروبوتات ستقوم بكل شيء، وإنهم سيعودون أبطالًا.

ثم انقطعت الأخبار تمامًا.

السيدة فوزية سعلت سعلة جافة، ثم قالت بصوتها المتشقق:

– في أيامي كان الرجل إذا ذهب إلى الحرب يكتب رسالة كل شهر على الأقل. حتى لو كانت الرسالة كلمة واحدة: «أنا حي». الآن... حتى الكلمة الواحدة اختفت.

سامح رفعت رأسها بغضب مكتوم.

– ربما هم في مكان بعيد. ربما الحرب انتهت هناك وهم لا يستطيعون العودة بعد. الشتاء النووي جعل الطرق مستحيلة.

منى ردت بهدوء مر:

– الطرق مستحيلة منذ خمس سنوات. والطائرات الآلية تطير كل يوم فوق رؤوسنا. لو أرادوا العودة لعادوا.

صمت ثقيل هبط على الدرجات. في الخارج كانت الرياح تدفع الغبار الإشعاعي الخفيف على الزجاج المكسور، فيصدر صوتًا خافتًا كحفيف أوراق ميتة.

ليلى همست فجأة:

– سمعتُ في قسم الصيانة شيئًا غريبًا. أحد الروبوتات القديمة التي نصلحها... كان فيه تسجيل صوتي. صوت رجل. يقول: «لم نعد ضروريين». ثم ينقطع التسجيل.

الجميع نظروا إليها.

نورا شعرت ببرودة تسري في يديها رغم الكوب الساخن.

سألت بصوت منخفض:

– هل أخبرتِ السيدة سعاد؟

ليلى هزت رأسها بسرعة.

– لا. لا أحد يجرؤ. الملفات التي تحمل الختم الأحمر... تقول الشائعات إنها تتحدث عن هذا بالضبط. عن اليوم الذي قرروا فيه أن العنصر البشري في الجيوش أصبح... عبئًا.

السيدة فوزية أغمضت عينيها لحظة، ثم فتحتهما ونظرت إلى نورا تحديدًا.

– أنتنّ صغيرات. لا تتذكرن كيف كان الصوت عندما يمتلئ المكان بالرجال. الضحك الخشن، والخطوات الثقيلة، ورائحة العطر الرخيص مختلطة بالزيت والدخان. الآن المكان نظيف جدًا. هادئ جدًا. كأن أحدهم مسح كل شيء بقطعة قماش رمادية كبيرة.

نورا ابتلعت ريقها.

في داخلها كانت صورة والدها تعود من جديد. الرجل الذي يبتسم في الصورة القديمة. تساءلت إن كان قد قال يومًا الجملة نفسها التي سمعتها ليلى في التسجيل:

«لم نعد ضروريين».

أنهت النساء غداءهن في صمت. وقفن واحدة تلو الأخرى وعدن إلى أماكنهن. نورا بقيت جالسة على الدرجة بضع دقائق إضافية، تنظر إلى الممر الفارغ الطويل.

في نهاية الممر كانت لافتة قديمة أخرى، مكتوب عليها بخط باهت:

«معًا نبني المستقبل».

تحت اللافتة كان الغبار قد رسم شكل قدمين كبيرتين، كأثر شخص مرّ من هنا منذ زمن بعيد ثم اختفى.

نورا مسحت الأثر بطرف حذائها، ثم نهضت وعادت إلى قسم الأرشيف.

خلفها، على الدرجات الباردة، بقي صوت السيدة فوزية يهمس لنفسها كأنها تتحدث إلى شخص غير موجود:

– أنا ما زلت أتذكر أصواتهم... حتى لو نسيها الجميع.

الفصل الرابع

أحمر الشفاه والأقمشة القديمة

بدأت الشائعة في الصباح الباكر، وانتشرت كالغبار الإشعاعي الذي لا يُرى لكنه يصل إلى كل مكان.

«استعراض النصر».

لم يعرف أحد من أين جاءت الكلمة أول مرة. قال البعض إنهم سمعوها من الطابق الثاني، حيث تعمل فتيات الصيانة. وقال آخرون إن السيدة سعاد نفسها تلقت بلاغًا رسميًا. المهم أن الكلمة صارت على كل لسان قبل أن ترتفع الشمس الرمادية إلى منتصف السماء.

في قسم الأرشيف، توقفت الأيدي عن تصنيف الملفات. حتى السيدة فوزية رفعت أصابعها عن آلة الكتابة ونظرت إلى الفتيات اللواتي تجمعن حول مكتب نورا.

قالت ليلى بصوت مبحوح من الإثارة:

– يقولون إن العدو استسلم. استسلم تمامًا. وإنهم سيقيمون موكبًا كبيرًا في الشارع الرئيسي خلال أيام.

سامح، التي كانت تحمل ملفًا أحمر الختم، وضعته جانبًا دون أن تنتبه.

– موكب؟ بعد سبع سنوات؟ هل يعني هذا أن الرجال سيعودون؟

لم يجب أحد. السؤال كان أكبر من أن يُجاب عليه بهذه السرعة.

في المساء، بعد انتهاء العمل الرسمي، لم تذهب النساء إلى غرف النوم مباشرة. اجتمعن في القاعة الكبيرة في الطابق الأول، تلك التي كانت يومًا ما قاعة اجتماعات

أنيقة. الآن جدرانها متصدعة، والمرايا القديمة مغطاة بالغبار، لكن الضوء الخافت القادم من النوافذ كان كافيًا.

أخرجن الملابس.

من الصناديق الخشبية القديمة، من تحت الأسرة، من الخزائن التي لم تُفتح منذ سنوات، خرجت أقمشة ملونة نسيها الجميع. فساتين كانت زاهية يومًا ما، تنانير مطرزة، بلوزات حريرية بهتت ألوانها لكنها ما زالت تحتفظ بشيء من أناقتها القديمة. مصانع النسيج توقفت منذ السنة الثانية، ولم يعد هناك قماش جديد. كل ما يملكونه هو ما نجا من القصف ومن الإشعاع ومن الزمن.

جلست النساء على الأرض في حلقات صغيرة، يخيطن ويصلحون ويزيلون البقع بقطع قماش مبللة بماء قليل وصابون قديم. الضحكات كانت مكتومة في البداية، ثم صارت أعلى. لأول مرة منذ سنوات طويلة بدت القاعة مليئة بصوت يشبه الفرح.

نورا جلست بعيدًا قليلًا، قرب الحائط. أمامها فستان أزرق باهت كانت أمها قد أهدتها إياه في عيد ميلادها التاسع، قبل أن تتشوه. الفستان ضاق عليها الآن، والحواف ممزقة، لكنها ظلت تلمسه بأصابعها برفق.

اقتربت منها ليلى تحمل علبة معدنية صغيرة صدئة.

– انظري ماذا وجدتُ.

فتحت العلبة. في داخلها بقايا أحمر شفاه أحمر قاتم، وشمع أحمر جاف، وأنبوبة رصاصية صغيرة كان لونها ورديًا يومًا ما. معظم الفتيات لم يرين أحمر شفاه حقيقيًا منذ الطفولة.

هتفت إحداهن:

– هذا كنز!

تداولت الفتيات العلبة كأنهن يتشاركن شيئًا مقدسًا. واحدة تلو الأخرى وضعت القليل على شفتيها، ونظرت في المرايا المكسورة، وضحكت من منظرها. حتى السيدة

فوزية، التي كانت تراقب من كرسيها، رضيت بأن تمس شفتيها الجافتين بقطعة صغيرة من الشمع الأحمر. ابتسمت ابتسامة متشققة، وقالت:

– في أيامي كان أحمر الشفاه يُعتبر أمرًا عاديًا. الآن صار احتفالًا.

مدّت ليلى العلبة نحو نورا.

– جربي. حتى لو قليلًا.

نورا هزت رأسها بهدوء.

– لا.

– لماذا؟ الوجه يحتاج إلى شيء من اللون. نحن لسنا في جنازة.

نورا لمعت عيناها لحظة، ثم قالت بصوت منخفض:

– لا أريد أن أبدو جميلة من أجل موكب قد لا يأتي فيه أحد.

صمت قصير. ليلى فهمت، وأعادت العلبة دون إلحاح. لكنها لم تستسلم تمامًا. جلست خلف نورا وبدأت تصفف شعرها بأصابعها الحاذقة، تفصل الخصلات، وتربطها بشريط قماش أزرق قديم وجدته بين الملابس.

– على الأقل اتركي شعرك جميلًا. حتى لو رفضتِ كل شيء آخر.

نورا لم تمانع. أغمضت عينيها وأحست بأصابع ليلى تتحرك في شعرها برفق. للحظة بدت الغرفة أكثر دفئًا، والضحكات أقل مرارة.

في الزاوية الأخرى كانت سماح تحاول إصلاح فستان أحمر كان ملكًا لأختها التي ماتت في السنة الأولى. ومنى تخيط زرًا في معطف رمادي لتحول لونه بقطعة قماش

صفراء باهتة. والنساء الأكبر سنًا يروين بصوت خافت كيف كنّ يتزينّ قبل الحرب: الحفلات، والمراقص، والعطور التي لم يعد لها وجود.

السيدة فوزية نظرت إلى نورا من بعيد، ثم قالت بصوت يصل إلى الجميع:

– أنتنّ تحاولن استعادة شيء سُرق منكنّ. هذا ليس عيبًا. العيب أن ننسى أننا كنّا نساءً قبل أن نصبح ناجيات.

عندما انتهى التصفيف، نظرت نورا إلى انعكاسها المشوه في قطعة مرآة مكسورة. الوجه ما زال كما هو: الخد الأيمن خشن ومتموج، والعينان غائرتان قليلًا من التعب. لكن الشعر صار مرتبًا، والخصلة الزرقاء أعطته مظهرًا مختلفًا.

ابتسمت ابتسامة صغيرة، لأول مرة منذ أيام.

في الخارج كانت السماء الرمادية تزداد قتامة مع اقتراب الليل. والرياح تحمل معها رائحة الغبار المعتادة. لكن داخل القاعة الكبيرة، وسط الأقمشة القديمة وأحمر الشفاه النادر والضحكات المكتومة، بدا أن شيئًا ما قد تحرك بعد سبع سنوات من الجمود.

شيء يشبه الأمل.

حتى لو كان هشًّا مثل القماش المهترئ الذي يحاولن إصلاحه.

الفصل الخامس

الشائعات

وصلت أنباء الاستسلام في اليوم التالي مباشرة.

لم تكن رسالة رسمية في البداية، بل همسًا انتقل من فم إلى أذن بسرعة مذهلة. امرأة من قسم الاتصالات في الطابق الثاني سمعت الإشارة عبر جهاز قديم لا يزال يعمل بالكاد، ونقلت الخبر إلى صديقتها، وهذه نقلته إلى أخريات، حتى امتلأت ممرات شركة «الأمل» بالكلمة قبل حلول الظهيرة:

«العدو استسلم».

الفرحة لم تكن صاخبة. لم يكن لدى أحد الطاقة للصراخ أو الرقص. لكنها كانت فرحة ثقيلة، بطيئة، كأنها تخرج من تحت طبقات الرماد التي تراكمت على صدورهن طوال سبع سنوات. النساء يتركن أعمالهن ويتجمعن في الزوايا، يكررن الجملة كأنهن يتأكدن من أنها حقيقية.

«استسلم».

«انتهت الحرب».

«سنرى الرجال أخيرًا».

نورا سمعت الخبر وهي تحمل كومة من الملفات في قسم الأرشيف. توقفت في منتصف الممر، وأحسّت أن شيئًا باردًا يمسك ببطنها. نظرت حولها. ليلى كانت تضحك بصوت عالٍ للمرة الأولى منذ أشهر. سماح تعانق منى. حتى السيدة فوزية رفعت رأسها عن الآلة الكاتبة وابتسمت ابتسامة متكسرة، وهي تقول:

– الحمد لله... بعد كل هذا الوقت.

لكن في الطرف الآخر من القاعة الكبيرة، خلف مكتبها الحديدي، كانت السيدة سعاد عبد الرحمن واقفة أمام النافذة المغطاة، ويداها مضمومتان خلف ظهرها. لم تبتسم. لم تلتفت إلى الضجيج. وجهها كان أكثر رمادية من السماء في الخارج.

اقتربت نورا منها بحذر، حاملة الملفات التي تحمل الختم الأحمر.

– سيدتي... هذه وصلت للتو.

سعاد التفتت ببطء. عيناها لم تكن فرحتين.

– ضعيها هنا.

نورا وضعت الملفات على المكتب. ترددت لحظة، ثم قالت بصوت منخفض:

– الجميع يتحدثون عن الاستسلام. هل الخبر صحيح؟

سعاد نظرت إليها نظرة طويلة، ثم أجابت بجملة واحدة فقط:

– الخبر صحيح. لكن الفرحة... مبكرة جدًا.

لم تضف شيئًا. عادت إلى النافذة، تاركة نورا واقفة في حيرة.

طوال فترة بعد الظهر استمرت الفرحة في الانتشار. الفتيات في قسم الصيانة توقفن عن إصلاح الروبوتات وبدأن في تنظيف النوافذ المكسورة بأفضل ما يستطيعن. أخريات خرجن إلى الشارع الضيق أمام المبنى وأخذن يلتقطن الحجارة والأنقاض، يحاولن فتح ممر صغير كأنهن يستعددن لموكب لم يُعلن عنه بعد. الضحكات كانت مكتومة، لكنها حقيقية.

أما نورا فعادت إلى الأرشيف.

جلست أمام الخزائن الحديدية وبدأت تبحث، دون أن تعرف بالضبط عما تبحث. فتحت أدراجًا لم تُفتح منذ سنوات. سجلات الموظفين قبل الحرب، قوائم الأسماء، تقارير الصيانة. لاحظت شيئًا غريبًا لأول مرة بوضوح:

بعض الملفات كانت ناقصة.

صفحات ممزقة بانتظام. أسماء مشطوبة بحبر أسود كثيف. تواريخ محذوفة. وفي الخزانة التي تحمل ملصق «مشاريع سرية – مستوى أمني مرتفع»، كانت هناك فراغات واضحة، كأن أحدهم أفرغ محتوياتها منذ زمن وترك المكان فارغًا عمدًا.

وجدت ملفًا قديمًا بعنوان «التحول إلى الأنظمة الآلية الكاملة». الغلاف سليم، لكن الصفحات الداخلية كانت مشفرة برموز لا تفهمها. في الصفحة الأخيرة فقط جملة واحدة مكتوبة بخط يدوي واضح:

«بحلول السنة الخامسة، لن يكون العنصر البشري ضروريًا في أي وحدة قتالية».

أغلقت نورا الملف بسرعة، وشعرت أن يدها ترتجف قليلًا.

رفعت رأسها. السيدة سعاد كانت لا تزال عند النافذة، لكن الآن كانت تتحدث بهدوء مع امرأة أخرى من قسم الاتصالات. ملامحها متوترة. عندما انتهت المحادثة، التفتت ورأت نورا تنظر إليها. اقتربت بخطوات بطيئة ووقفت أمام مكتبها.

– ماذا تفعلين؟

نورا ابتلعت ريقها.

– أرتب فقط... بعض الملفات القديمة.

سعاد مدت يدها وأخذت الملف المشفر من فوق المكتب دون أن تسأل. وضعته في درج مغلق بالمفتاح، ثم قالت بصوت بارد:

– لا تبحثي عن أشياء لا تخصك. الاستسلام خبر جيد. اكتفي بذلك.

ابتعدت.

نورا جلست صامتة وقتًا طويلًا. خارج النافذة كانت النساء لا يزلن يضحكن ويلتقطن الحجارة من الطريق. في الداخل كان الأرشيف هادئًا وباردًا كالعادة.

لكن شيئًا ما قد تغيّر داخلها.

الفرحة الجماعية كانت حقيقية. الشائعات كانت قوية. لكن القلق في عيني السيدة سعاد، والملفات الناقصة، والجملة المكتوبة بخط يدوي، كلها كانت تقول شيئًا آخر.

شيئًا لم تجرؤ نورا بعد على تسميته.

في المساء، عندما عادت إلى غرفة النوم المشتركة، وجدت ليلى تنتظرها عند الباب، وجهها مشرقًا.

– هل سمعتِ؟ يقولون إن الاستعراض سيكون خلال أسبوع. وسيكون أعظم موكب في تاريخ المدينة.

نورا أجبرت نفسها على الابتسام.

– نعم... سمعت.

ثم دخلت الغرفة وأغلقت الباب خلفها بهدوء.

في الظلام الرمادي، وضعت يدها على خدها المشوه، وتساءلت للمرة الأولى بصراحة:

إذا كان العدو قد استسلم... فلماذا تبدو رئيسة الشركة كمن ينتظر كارثة؟

الفصل السادس

الليالي الطويلة

في الليل كانت شركة «الأمل» تتحول إلى مكان آخر.

تتوقف الأصوات المعدنية، وتنطفئ المصابيح القليلة التي تعمل بالطاقة الشمسية الضعيفة، ويبقى فقط ضوء القمر الرمادي الذي يتسلل من النوافذ المكسورة. الغرف المشتركة تصبح مليئة بأنفاس النساء النائمات وهمسات من لا يستطعن النوم.

نورا كانت من اللواتي لا ينمن بسهولة.

جلست تلك الليلة على حافة سريرها، ظهرها إلى الحائط المتشقق، تستمع إلى الرياح التي تضرب البلاستيك المهترئ على النافذة. بجانبها كانت ليلى نائمة، تتنفس بهدوء. أما سماح ومنى فقد انتقلتا إلى زاوية الغرفة مع ثلاث نساء أخريات، يجلسن في دائرة صغيرة حول شمعة باهتة صنعوها من شحم قديم وفتيل قماش.

الصوت كان خافتًا، لكنه واضح في الصمت.

قالت سماح:

– أبي كان يعمل في الميناء. يوم أخذوه قال لي: «سأعود قبل أن يطول شعرك». شعري طال وقصّيته ثلاث مرات منذ ذلك اليوم.

منى أضافت بصوت أجش:

– زوجي كتب لي مرة واحدة فقط بعد التجنيد. قال إنهم يدربونهم على قيادة شيء جديد. «روبوتات»، كتب الكلمة هكذا. ثم لم يكتب بعدها أبدًا. أحتفظ بالرسالة في علبة تحت السرير. الورقة صارت صفراء، لكن الخط ما زال واضحًا.

امرأة ثالثة، أكبر سنًا قليلًا، اسمها هدى، قالت وهي تنظر إلى اللهب الصغير:

– أخي الصغير كان في السابعة عشرة فقط. أخذوه في الدفعة الأخيرة. أمي ماتت وهي تنتظره. أنا لم أعد أنتظر. الانتظار يقتل أبطأ من الإشعاع.

الصمت عاد لحظة. ثم التفتت هدى إلى نورا.

– وأنتِ؟ هل تتذكرين أباك جيدًا؟

نورا لم تكن تريد الكلام، لكن الظلام كان يجعل الاعتراف أسهل.

– أتذكر ابتسامته. ويده على كتفي. والصورة... الصورة فقط. بعد أن أخذوه صرت أحلم به كل ليلة تقريبًا. في الحلم يكون هناك موكب طويل، رجال كثيرون يسيرون في الشارع الرئيسي. أبي بينهم. يبتسم لي من بعيد. لكن عندما يقترب... وجهه يكون فارغًا. بلا عينين. بلا فم. فقط سطح أملس رمادي مثل جلد الروبوتات التي نصلحها في الطابق الثاني.

ليلى تحركت على سريرها، نصف نائمة، وهمست:

– أنا أيضًا أحلم بهم. لكن في حلمي يكونون جميعًا صامتين. يمرون ولا ينظرون إلينا.

من الباب المفتوح قليلًا جاء صوت السيدة فوزية. كانت تجلس في الممر على كرسيها الخشبي، كما تفعل كل ليلة منذ سنوات، كأنها حارسة قديمة لا تريد أن تنام.

قالت بصوتها المتشقق الذي يصل إلى الجميع:

– أنتنّ تحلمن بالعودة. وأنا أحلم بما قبل الاختفاء.

الجميع صمتوا. اقتربت نورا من الباب قليلًا، وسمعت العجوز تكمل:

– الرجال لم يختفوا فجأة. اختفوا على مراحل. أولًا أخذوهم ليحاربوا. ثم صاروا يرسلون الآلات بدلهم. ثم... في مرحلة ما، قرر أحدهم أن الآلات أفضل. أهدأ. أكثر طاعة. لا تتعب ولا تبكي ولا تكتب رسائل. الرجال لم يختفوا... استُبدلوا.

الكلمة سقطت في الغرفة كحجر في ماء راكد.

«استُبدلوا».

سامح همست، صوتها مرتجف:

– هذا مستحيل. لا يمكن أن يوافق أحد على شيء كهذا.

فوزية سعلت سعلة جافة.

– هل تعتقدين أن أحدًا سألهم رأيهم؟ الحرب كانت طويلة. والخسائر كبيرة. والروبوتات لا تحتاج إلى طعام ولا دواء ولا إجازات. في يوم من الأيام ببساطة... لم يعد العنصر البشري ضروريًا.

نورا شعرت أن الهواء في الغرفة صار أثقل. عادت إلى سريرها وجلست متربعة، تضع يديها حول ركبتيها. خارج النافذة كانت السماء الرمادية بلا نجوم، كما هي كل ليلة.

هدى سألت بصوت خافت:

– وإذا كان ما تقولينه صحيحًا... فماذا ننتظر في الاستعراض؟

فوزية لم تجب مباشرة. سمعوا صوت عكازها الخشبي وهي تتحرك قليلاً في الممر.

ثم قالت الجملة الأخيرة تلك الليلة، بصوت بدا كأنه يأتي من بعيد جدًا:

– ننتظر أن نرى ماذا تبقى بعد أن استبدلوا كل شيء.

الشمعة انطفأت بعد قليل. النساء عدن إلى أسرتهن واحدة تلو الأخرى. ليلى نامت من جديد. سماح ومنى صمتتا. أما نورا فبقيت مستيقظة وقتًا طويلًا، تحدق في الظلام.

في داخلها كان الحلم يتكرر قبل أن تنام:

الموكب الطويل.

الرجال يسيرون.

أبوها يقترب.

ثم الوجه الفارغ الأملس.

وعندما استيقظت قبل الفجر، كانت الكلمة ما زالت تتردد في رأسها كصدى لا يريد أن يموت:

«استُبدلوا».

الفصل السابع

الصباح الاستثنائي

استيقظت المدينة الرمادية قبل موعدها المعتاد.

في شركة «الأمل» بدأت الأقدام تتحرك منذ الفجر. لم يطرق أحد بابًا، ولم يُنادِ أحد باسم أحد. كأن الجسد الجماعي للنساء عرف وحده أن هذا الصباح مختلف. ارتدين أفضل ما أصلحته أيديهن خلال الأيام الماضية: الفساتين الباهتة، التنانير المرقّعة، البلوزات التي أعيد تلوينها بقطع قماش قديمة. بعضهن وضعن القليل المتبقي من أحمر الشفاه، فبدت شفاههن كنقاط حمراء صغيرة في وجوه شاحبة.

نورا خرجت من غرفة النوم وهي ترتدي الفستان الأزرق القديم الذي ضاق عليها. لم تضع أحمر شفاه. شعرها ما زال مربوطًا بالشريط الأزرق الذي صففته ليلى قبل أيام. نزلت الدرج ببطء، ووجدت الردهة الكبيرة في الطابق الأول قد امتلأت بالفعل.

النساء يتجمعن في مجموعات صغيرة حول النوافذ المكسورة والمكاتب القديمة. الضحكات كانت أعلى من المعتاد، والهمسات أسرع. رائحة الشاي المعدني مختلطة برائحة القماش المغسول بالماء البارد. على الحائط علّقت إحداهن قطعة قماش صفراء كتب عليها بخط كبير غير متقن: «يوم النصر».

في العاشرة إلا ربع وصلت السيدة سعاد.

الجميع صمتوا لحظة حين ظهرت عند باب القاعة. لم تكن ترتدي الرمادي.

لأول مرة منذ سبع سنوات ظهرت في ثوب مزخرف بالزهور الحمراء والصفراء، ثوب قديم أُخرج من صندوق نسيه الجميع. القماش باهت والألوان باهتة، لكنه كان ملونًا. شعرها الرمادي كان مربوطًا بشكل مختلف، أقل صرامة. وقفت في وسط القاعة، ونظرت إلى الوجوه المحيطة بها، ثم قالت بصوت هادئ لكنه يصل إلى الجميع:

– اليوم لن يعمل أحد. الطوابق الأربعة الباقية تعطي أفضل إطلالة على الشارع الرئيسي. اذهبن إلى النوافذ. راقبن جيدًا.

ابتسامة خفيفة مرت على وجهها، لكنها لم تصل إلى عينيها.

انتشرت النساء بسرعة. بعضهن صعدن إلى الطابق الثاني والثالث، وأخريات بقين في الأول. النوافذ المكسورة صارت ممتلئة بالوجوه. الفتيات يتزاحمن، يضحكن، يشرن

بأيديهن إلى الطريق الواسع المغطى بالأنقاض والذي نظّفته أيديهن خلال الأيام الماضية قدر الإمكان.

نورا لم تنضم إلى أي مجموعة.

وقفت وحيدة في الزاوية البعيدة من القاعة، قرب العمود الإسمنتي المتشقق، حيث يمكنها رؤية الشارع والقاعة في الوقت نفسه. من مكانها كانت ترى السيدة سعاد وهي تمشي بين النساء، تبتسم ابتسامات قصيرة، وتربت على أكتاف بعض الفتيات. لكنها كانت ترى أيضًا كيف تتوقف الابتسامة بمجرد أن تدير وجهها بعيدًا.

ليلى جاءت راكضة من الطابق الثاني، وجهها متوردًا من الصعود.

– نورا! تعالي إلى الأعلى. الرؤية أوضح بكثير. يمكن رؤية الميناء من هناك.

نورا هزت رأسها.

– سأبقى هنا.

– لماذا؟ اليوم يوم سعيد.

نورا نظرت إلى الشارع الفارغ خلف الزجاج المكسور.

– لا أعرف إن كان سعيدًا بعد.

ليلى نظرت إليها لحظة، ثم ضغطت على ذراعها بلطف وعدت مسرعة إلى الدرج. نورا بقيت مكانها. خلفها كانت أصوات النساء تتعالى: تعليقات على الملابس، تخمينات عن موعد وصول الموكب، ضحكات مكتومة كلما تذكرت إحداهن كيف كانت الاحتفالات قبل الحرب.

السيدة فوزية جلست على كرسيها المعتاد قرب النافذة الوسطى، يداها على ركبتيها، وعكازها الخشبي إلى جانبها. عندما مرّت نورا بقربها، رفعت العجوز رأسها وقالت بصوت منخفض:

– انظري إليها جيدًا اليوم. السيدة سعاد. الثوب الملون لا يُخفي كل شيء.

نورا أومأت دون أن تتكلم.

في الخارج كانت السماء الرمادية كما هي كل صباح: كثيفة، بلا شمس حقيقية، لكنها اليوم بدت أقل ثقلاً في عيون معظم النساء. الطريق الرئيسي امتد أمام المبنى كشريط رمادي طويل، نظيف نسبيًا بعد أيام من جمع الحجارة. في الأفق البعيد، فوق أنقاض الميناء، كانت هناك حركة خافتة، شيء يقترب ببطء.

نورا شعرت بقلبها ينبض أسرع.

حولها كانت الفرحة تكبر دقيقة بعد دقيقة. الفتيات يشرن ويضحكن ويصلحن شعورهن للمرة العاشرة. السيدة سعاد تقف الآن قرب النافذة المركزية، يداها مضمومتان أمامها، نظرتها ثابتة على الطريق.

أما نورا فبقيت في زاويتها، تلمس الشريط الأزرق في شعرها دون أن تدري، وتنتظر.

لأول مرة منذ سبع سنوات كان الصباح يبدو استثنائيًا.

ولأول مرة أيضًا كان الخوف داخلها أوضح من الفرحة.

الفصل الثامن

الانتظار

الساعات كانت تمر ببطء يشبه حركة الغبار في الهواء الراكد.

من التاسعة صباحًا حتى العاشرة والنصف لم يحدث شيء. الطريق الرئيسي ظل فارغًا، والسماء الرمادية لم تتغير، والرياح الباردة كانت ترفع بين الحين والآخر قطعًا صغيرة من الورق والأنقاض ثم تتركها تسقط من جديد. النساء عند النوافذ بدأن يفقدن صبرهن تدريجيًا.

في البداية كنّ يقفن منتصبات، يضحكن ويشرن إلى الأفق. ثم صرن يتكئن على الحواف المتكسرة، يهمسن، يصلحون شعورهن للمرة العشرين. بعضهن جلسن على المكاتب القديمة وبدأن يروين القصص نفسها عن الاحتفالات القديمة قبل الحرب. الضحكات صارت أعلى قليلًا، لكن فيها شيئًا هستيريًا خفيفًا، كأنها تحاول أن تملأ الفراغ الذي يتركه الانتظار.

نورا بقيت في زاويتها.

كانت ترى كل شيء: ليلى التي تنتقل من نافذة إلى أخرى كطفلة لا تهدأ، سماح ومنى اللتين تمسكان بأيدي بعضهما، السيدة فوزية التي تجلس صامتة وعيناها على الطريق، والسيدة سعاد التي تقف في المنتصف كتمثال ملون في ثوبها الزهري الأصفر، لا تتحرك إلا قليلاً.

فجأة صاحت إحدى الفتيات من الطابق الثاني:

– دفاتر الهاتف!

كان في زاوية القاعة كومة كبيرة من دفاتر الهاتف القديمة السميكة، تلك التي توقفت عن الفائدة منذ انقطاع الخدمة الهاتفية قبل سنوات. الفتيات هاجمن عليها كأنهن عثرن على كنز. بدأن يمزقن الصفحات بأيديهن، يحولنها إلى قصاصات صغيرة ملونة بألوان الحبر الباهت، ثم يرمينها من النوافذ المكسورة.

الورق طار في الهواء الرمادي كأسراب طيور ميتة.

ضحكن وهنّ يرين القصاصات تتساقط على الطريق الذي نظّفته أيديهن من قبل. بعضهن صرن يمزقن الصفحات بسرعة أكبر، كأن التمزيق نفسه يفرغ شيئًا داخلهن. ليلى نزلت راكضة إلى الطابق الأول وحملت دفترين كبيرين، ثم صعدت من جديد وهي تضحك.

– انظري يا نورا! كأننا في عيد قديم!

نورا لم تتحرك من مكانها. لكنها راقبت القصاصات وهي تتطاير وتسقط على الإسفلت المتشقق. تذكرت أن هذه الدفاتر كانت يومًا ما تحتوي على أسماء رجال ونساء وعناوين وأرقام. الآن صارت مجرد ورق يُرمى في الريح.

السيدة فوزية رفعت رأسها نحو النوافذ وقالت بصوت مسموع:

– في أيامي كانوا يرمون الأرز والورود. الآن نرمي أسماء الموتى.

ضحكت بعض الفتيات، لكن الضحكة جاءت قصيرة وانقطعت بسرعة. القلق المكتوم الذي كان يختبئ تحت الفرحة بدأ يظهر في العيون. امرأة في الأربعين همست لجارتها:

– لماذا يتأخرون كل هذا الوقت؟

أخرى ردت:

– ربما يعدّون شيئًا كبيرًا. موكب النصر لا بد أن يكون مهيبًا.

نورا نظرت إلى السيدة سعاد. كانت المرأة ما زالت واقفة في مكانها، لكن أصابعها الآن تضغط على حافة النافذة بقوة تجعل مفاصلها بيضاء. الثوب المزخرف بدا فجأة أقل فرحًا تحت الضوء الرمادي.

في الساعة الحادية عشرة إلا ربع جاء الصوت.

من بعيد جدًا، من جهة الميناء المدمر، بدأ صوت خافت يشبه الطبول. ثم انضم إليه صوت آلات نحاسية بعيدة، مقطوعة موسيقية عسكرية قديمة كانت تُعزف قبل الحرب في المناسبات الرسمية. الصوت كان ضعيفًا في البداية، يتقطع مع الرياح، لكنه كان يقترب ببطء.

الجميع صمتوا.

القصاصات الورقية توقفت عن التطاير. الأيدي التي كانت تمزق الدفاتر تجمدت. النساء انحنين من النوافذ أكثر، يحاولن رؤية مصدر الصوت. ليلى وضعت يدها على فمها. سماح أمسكت ذراع منى بقوة.

السيدة سعاد قالت بصوت هادئ، لكنه وصل إلى كل القاعة:

– اقترب. الجميع إلى النوافذ. لا أحد يتكلم حتى يمر الموكب كاملاً.

نورا شعرت أن قلبها يضرب ضد أضلاعها. اقتربت خطوة واحدة من العمود الإسمنتي، وما زالت ترفض أن تنضم إلى الزحام عند النوافذ. من مكانها كانت ترى الطريق الفارغ، والقصاصات الورقية المبعثرة عليه كأنها بقايا احتفال لم يبدأ بعد، والسماء الرمادية الثقيلة التي لا تتحرك.

الموسيقى صارت أوضح قليلاً.

الطبول أعمق.

الآلات النحاسية أكثر حدة.

والنساء ينتظرن، يضحكن ضحكات قصيرة متقطعة كلما ارتفع الصوت، ثم يصمتن من جديد.

نورا أغلقت عينيها لحظة، ثم فتحتهما.

في داخلها كان الحلم القديم يعود: الموكب الطويل، الرجال يسيرون، الوجوه الفارغة.

والآن، لأول مرة، كان الصوت حقيقيًا.

يقترب.

الفصل التاسع

الموكب يبدأ

جاء الصوت أولًا، ثم جاءت الهزة.

الطبول العسكرية اقتربت حتى صارت تهتز في زجاج النوافذ المكسور. الموسيقى النحاسية ارتفعت وصارت واضحة، مقطوعة قديمة كانت تُعزف في أيام النصر قبل أن تُمحى تلك الأيام من الذاكرة. ثم، من جهة الميناء البعيد، ظهرت النقطة السوداء الأولى.

نورا شعرت بها قبل أن تراها.

الطريق الرئيسي الذي نظّفته أيدي النساء خلال الأيام الماضية بدا فجأة أضيق. الغبار الإشعاعي الخفيف ارتفع في الهواء كأنه يتنحى جانبًا. والقصاصات الورقية التي رمينها من النوافذ بدأت تطير من جديد مع اقتراب الشيء الثقيل.

ثم ظهرت.

دبابات.

ليست كأي دبابات رأتها نورا في الصور القديمة. هذه كانت هائلة، سوداء بالكامل، لامعة كأنها طُليت بزيت جديد رغم سنوات الحرب. أجسامها منخفضة وعريضة، سلاسلها تضرب الإسفلت المتشقق بصوت معدني منتظم يشبه دقات قلب آلي عملاق. فوق كل دبابة برج دائري أملس بلا أي فتحة ظاهرة للقائد. لا رؤوس تخرج من المنافذ، لا أيدٍ تلوح، لا وجوه.

الروبوتات كانت تقودها.

وحدات قتالية متقدمة، سوداء أيضًا، تجلس في أماكن القيادة المغلقة كأنها جزء من المعدن نفسه. عيونها العدسية الحمراء الصغيرة تتوهج بضوء خافت ثابت. تحركت الدبابات في صف واحد دقيق، بطيئة ومهيبة، لا تنحرف سنتيمترًا عن المسار.

من النوافذ انطلق أول هتاف.

– انظري!

– يا إلهي كم هي ضخمة!

– هذا نصر حقيقي!

ليلى صرخت من الطابق الثاني وهي تصفق بكفيها. سماح ومنى رفعنا أيديهما معًا. حتى السيدة فوزية مالت إلى الأمام على كرسيها، وعيناها الواسعتان تتابعان السلاسل المعدنية وهي تطحن الحجارة الصغيرة تحتها.

الهتافات كبرت.

النساء يصفّرن ويضحكن ويشرن. بعضهن رمين القصاصات الورقية المتبقية من النوافذ من جديد، فسقطت على الدبابات السوداء كأنها ترحيب أبيض باهت. الموسيقى العسكرية ارتفعت أكثر، وكأن الآلات النحاسية نفسها صارت جزءًا من الموكب.

نورا لم تهتف.

وقفت في زاويتها، ظهرها إلى العمود المتشقق، ويداها مضغوطتان على حافة النافذة الباردة. كانت ترى ما لا يراه الآخرون بوضوح كافٍ بعد.

لا قائد بشري.

لا جندي يمشي إلى جانب الدبابات.

لا ضابط يرفع يده بالتحية.

فقط المعدن الأسود اللامع يتحرك في انسجام مخيف. الدبابات تمر واحدة تلو الأخرى، سبع… ثماني… عشر. كل واحدة أضخم من التي قبلها، وكل واحدة تحمل على جانبها شعارًا باهتًا يشبه العين المغلقة.

السيدة سعاد كانت واقفة في النافذة المركزية، ثوبها الزهري الأصفر يرفرف قليلًا مع الهواء الداخل من الكسور. وجهها لم يكن فرحًا تمامًا. كانت تتابع الموكب بعينين ضيقتين، وشفتاها مضغوطتان كأنها تمنع كلمة من الخروج.

عندما مرت الدبابة الخامسة، اقتربت ليلى راكضة من الدرج وهي تلهث.

– نورا! لماذا لا تأتين؟ هذا أجمل شيء رأيته في حياتي!

نورا أجابت دون أن تلتفت:

– أين الرجال الذين يقودونها؟

ليلى توقفت. الضحكة على وجهها تجمدت لحظة، ثم عادت أضعف.

– الروبوتات تقودها. هذا هو التطور. ألم تسمعي؟ الآلات أصبحت أفضل من أي جندي.

نورا لم ترد. عيناها ظلتا على الطريق.

الدبابات استمرت في المرور، بطيئة، دقيقة، صامتة إلا من صوت السلاسل والموسيقى البعيدة. الغبار كان يرتفع خلفها في سحب رمادية صغيرة. وعلى جانبي الطريق لم يكن هناك أي متفرج آخر غير نساء شركة «الأمل». المدينة كلها بدت خالية، كأن هذا الموكب يُقام لهن وحدهن.

فجأة، من إحدى الدبابات الوسطى، خرج صوت آلي معدني مسجل، عالٍ وواضح:

«وحدة النصر الآلية المتقدمة... تمر لتحية المدينة».

ثم صمت.

الهتافات من النوافذ ارتفعت من جديد، لكن نورا سمعت هذه المرة شيئًا مختلفًا تحتها. ضحكات أقصر. همسات أسرع. امرأة في الطابق الثالث قالت بصوت يصل بالكاد:

– جميلات... لكن فارغات.

نورا أغلقت أصابعها أكثر على حافة النافذة.

الموكب كان قد بدأ للتو.

والدبابات السوداء ما زالت تأتي من الأفق، لامعة وباردة وكاملة في صمتها المعدني.

كأنها لم تحتج أبدًا إلى بشر كي تنتصر.

الفصل العاشر

الأسلحة التي لا تنام

بعد الدبابات جاءت المنصات.

كانت أطول وأضيق، تتحرك على سلاسل أرفع لكن بسرعة لا تقل دقة. فوق كل منصة صفوف من الصواريخ العمودية، رؤوسها المدببة تتجه إلى السماء الرمادية كأنها غابة معدنية ميتة. الروبوتات التي تقودها كانت أصغر حجمًا هذه المرة، لكنها أكثر عددًا، تتحرك بين الصواريخ بخطوات منتظمة كأنها تؤدي رقصة محفوظة منذ زمن طويل.

النساء عند النوافذ صرن يهمسن بدل الهتاف.

– انظرن إلى الصواريخ…

– كم يبلغ طول الواحد منها؟

– يقولون إنها تقطع القارة في دقائق.

نورا كانت تحصي. اثنتا عشرة منصة. كل منصة تحمل ثمانية صواريخ. كلها لامعة، كلها سوداء أو رمادية داكنة، كلها بلا أي علامة بشرية. لا أسماء كتبت على الجوانب، لا شعارات وحدات قديمة، لا صور لوجوه جنود سقطوا. فقط أرقام تسلسلية محفورة بدقة آلية.

ثم ظهرت الأسلحة الليزرية.

مركبات منخفضة مستطيلة، تتحرك بصمت تقريبًا، تحمل على ظهورها أنابيب طويلة تنتهي بعدسات زجاجية ضخمة. العدسات كانت تلمع حتى في الضوء الرمادي الخافت، كأنها عيون مفتوحة لا ترمش. الروبوتات هنا مختلفة: أطول، أنحف، برؤوس بيضاوية بلا ملامح. كانت تقف إلى جانب الأنابيب كحراس صامتين.

عندما مرت أولى المركبات أمام المبنى، أطلقت إحدى العدسات شعاعًا تجريبيًا رفيعًا أحمر اللون إلى السماء. الشعاع اخترق الغيوم الرمادية واختفى. بعض الفتيات صرخـن من الإعجاب. أخريات تراجعن خطوة عن النوافذ.

ليلى، التي كانت في الطابق الثاني، نزلت بسرعة ووقفت بجانب نورا هذه المرة. وجهها لم يعد متوردًا بالفرح فقط.

– هل رأيتِ الشعاع؟ قالوا إن هذه الأسلحة أحرقت مدنًا كاملة في السنة الرابعة.

نورا أجابت وهي تتابع المركبة التالية:

– وهل كان هناك أحد بداخلها ليفعل ذلك؟

ليلى لم ترد.

الموسيقى العسكرية كانت ما زالت تعزف، لكن الآن بدت أبعد، كأنها تأتي من مكان آخر. الطبول صارت أعمق، والآلات النحاسية أكثر حدة، حتى بدا الصوت نفسه آليًا.

ثم جاءت الطائرات.

لم تأتِ من الطريق. جاءت من السماء.

في البداية كانت نقاطًا سوداء بعيدة فوق الأفق الغربي. ثم كبرت بسرعة مذهلة. طائرات مقاتلة ذات أجنحة حادة مثل السكاكين، أجسامها مسطحة وعديمة القمرة الزجاجية المعتادة. لا طيار بشري. فقط خطوط حمراء صغيرة على الأجنحة تدل على أنظمة التحكم الآلي.

حلقت فوق الشارع الرئيسي على ارتفاع منخفض. صوت محركاتها كان صفيرًا حادًا يمزق الهواء. ثم، في لحظة واحدة متزامنة، أطلقت من ذيولها دخانًا أبيض كثيفًا رسم خطوطًا مستقيمة طويلة في السماء الرمادية.

الدخان الأبيض بقي معلقًا كجراح مضيئة على الوجه الرمادي للشتاء النووي.

النساء رفعن رؤوسهن جميعًا. حتى السيدة فوزية أخرجت رأسها من النافذة قدر ما تستطيع. السيدة سعاد ظلت واقفة في مكانها، لكن يدها اليسرى أمسكت بحافة الثوب الزهري كأنها تحتاج إلى شيء تتشبث به.

قالت امرأة من الطابق الثالث بصوت يصل بالكاد:

– الدخان... يحطم ما تبقى من طبقة الأوزون. هذا ما قالوه في التقارير القديمة.

ضحكت فتاة أخرى ضحكة قصيرة متوترة:

– لكن انظرن كم هو جميل!

الجمال كان باردًا.

الطائرات دارت دورة واسعة فوق المدينة المدمرة ثم عادت لتحلق في تشكيل أدق. الدخان الأبيض امتد أكثر، وصار يغطي جزءًا من السماء كستارة شفافة. تحتها كانت المنصات الصاروخية والدبابات السوداء ما زالت تمر في الشارع، بطيئة ومنتظمة وكاملة في صمتها.

نورا شعرت أن شيئًا ما يتغير في القاعة خلفها.

الهتافات لم تعد قوية كما في البداية. الضحكات صارت أقل. الهمسات زادت. امرأة قالت لجارتها:

– كل هذا... بدون جندي واحد؟

أخرى ردت بصوت مرتجف:

– ربما الرجال يأتون في المؤخرة. الموكب طويل.

لكن المؤخرة كانت تظهر الآن: المزيد من المركبات الآلية، المزيد من الروبوتات التي تمشي على جانب الطريق بخطوات متزامنة تمامًا، المزيد من الأسلحة التي لا يبدو أنها تحتاج إلى راحة أو طعام أو أوامر بشرية جديدة.

السيدة سعاد التفتت فجأة نحو القاعة وقالت بصوت عالٍ لأول مرة منذ بدء الموكب:

– راقبن بصمت. هذا يوم تاريخي.

لكن صوتها لم يكن صوت امرأة تحتفل.

نورا نظرت إلى يديها الممسكتين بحافة النافذة. كانت أصابعها بيضاء من شدة الضغط. رفعت رأسها من جديد نحو السماء حيث بقي الدخان الأبيض معلقًا كأثر لا يمحى.

الأسلحة كانت تمر تحتها، لامعة وباردة ولا تنام.

ولأول مرة أدركت نورا بوضوح كامل أن هذا الموكب لم يكن استعراضًا لما انتصر.

كان استعراضًا لما حلّ محل المنتصرين.

الفصل الحادي عشر

الصمت

الموكب انتهى كما بدأ: ببطء ودقة وآلية تامة.

آخر المركبات السوداء مرت أمام المبنى في الساعة الثانية بعد الظهر تقريبًا. كانت أصغر من الدبابات، وأقل ارتفاعًا من منصات الصواريخ، تحمل على ظهورها صناديق معدنية مغلقة لا يُعرف ما بداخلها. الروبوتات التي تمشي إلى جانبها كانت تسير في صفوف منتظمة، رؤوسها البيضاوية لامعة، وخطواتها متزامنة كأنها ساعة واحدة كبيرة تدق.

ثم... لم يأتِ شيء.

الطريق الرئيسي امتد فارغًا أمام أعين النساء. الغبار الذي أثارته السلاسل بدأ يستقر ببطء. القصاصات الورقية التي رمينها في الصباح كانت ملقاة على الإسفلت كبقايا احتفال لم يكتمل. الموسيقى العسكرية، التي كانت تعزف طوال الساعات الماضية، تضاءلت تدريجيًا حتى صارت همسًا بعيدًا، ثم اختفت تمامًا.

الصمت هبط على القاعة دفعة واحدة.

لم تصرخ أي امرأة. لم تتكلم. النوافذ المكسورة امتلأت بوجوه محدقة، عيون واسعة، أفواه نصف مفتوحة. ليلى كانت ما زالت تقف بجانب نورا، لكن يدها التي كانت تمسك ذراعها تراخت وسقطت. سماح وضعت كفها على فمها. منى تراجعت خطوة إلى الخلف كأنها خافت أن يسقط شيء من السماء.

نورا شعرت أن الهواء قد سُحب من رئتيها.

انتظرت.

الجميع انتظروا.

دقيقة.

دقيقتين.

خمس دقائق.

لا شيء.

لا جنود يسيرون في المؤخرة.

لا ضباط يلوحون.

لا شاحنات تحمل رجالًا مبتسمين.

لا أعلام تُرفع بأيدٍ بشرية.

لا صوت بشري واحد يأتي من الطريق.

فقط الصمت، والطريق الرمادي الفارغ، والسماء التي عاد لونها الثقيل كما كان.

من الطابق الثاني جاءت همسة مرتجفة:

– هل انتهى؟

لم يجب أحد.

امرأة أخرى قالت بصوت أعلى قليلًا:

– ربما تأخر الجزء الأخير. الرجال... لا بد أنهم يأتون.

السيدة سعاد التفتت أخيرًا عن النافذة. وجهها في الثوب الزهري الأصفر بدا فجأة شاحبًا ومتعبًا. حاولت أن تبتسم، لكن الابتسامة لم تكتمل.

– الجميع ابقوا في أماكنكم. الموكب قد يكون له جزء ثانٍ. لا داعي للقلق.

صوتها كان هادئًا، لكنه لم يعد يملك السلطة نفسها. الفتيات لم يتحركن من النوافذ. بعضهن بدأن ينظرن إلى بعضهن البعض بعيون تسأل السؤال نفسه دون أن تنطق به.

نورا شعرت بحرارة غريبة خلف عينيها.

تراجعت خطوة عن النافذة، واستندت إلى العمود الإسمنتي. الصورة القديمة لوالدها جاءت فجأة إلى ذهنها بوضوح مؤلم: الرجل الذي يبتسم، يده على كتف الطفلة. ثم اختفت الصورة، وحل محلها الوجه الفارغ الأملس الذي كانت تراه في أحلامها.

بدأت تبكي.

لم تصرخ. لم تشهق. الدموع نزلت بهدوء على خدها السليم، ثم على الخد المشوه، فاختلطت بملمس الجلد الخشن. أدارت وجهها نحو الحائط كي لا يراها أحد، لكن ليلى كانت قريبة جدًا.

همست ليلى، صوتها مكسور:

– نورا...؟

نورا لم ترد. فقط هزت رأسها مرة واحدة، والدموع ما زالت تسقط.

في القاعة بدأ الصمت يتكسر ببطء. همسات متفرقة. امرأة تسأل جارتها إن كانت قد رأت أي جندي. أخرى تقول إنها متأكدة أن الرجال سيأتون من جهة الميناء. ثالثة تجلس على الأرض فجأة وتضع رأسها بين ركبتيها.

السيدة سعاد رفعت صوتها من جديد، هذه المرة أكثر حدة:

– أكرر: ابقوا في أماكنكم. لا أحد يغادر النوافذ. هذا يوم نصر، ويجب أن نتصرف بما يليق.

لكن الكلمات سقطت في الهواء ولم تلتقطها أحد. الفتيات كنّ ما زلن يحدقن في الطريق الفارغ كمن ينتظر معجزة متأخرة. السيدة فوزية، التي ظلت صامتة طوال الوقت، نطقت أخيرًا بصوتها المتشقق الذي ملأ القاعة فجأة:

– انتهى.

الجميع التفتوا إليها.

العجوز كانت ما زالت جالسة على كرسيها، يداها على ركبتيها، وعيناها على الشارع.

– الموكب انتهى. ولم يأتِ أحد.

سعاد اقتربت منها بخطوات سريعة.

– لا تقولي ذلك. أنتِ تسببون الذعر.

فوزية رفعت رأسها ونظرت إليها نظرة طويلة متعبة.

– أنا أقول ما نراه جميعًا. لا رجال. لا جنود. لا أحد.

نورا مسحت وجهها بكم فستانها الأزرق، والتفتت من جديد نحو النافذة. الطريق ما زال فارغًا. الغبار استقر تمامًا. وفي الأفق البعيد، فوق أنقاض الميناء، لم تكن هناك أي حركة أخرى.

الصمت عاد أثقل من قبل.

وفي وسطه، كانت نورا تسمع فقط صوت بكائها الداخلي الذي لم يعد يستطيع الخروج.

الفصل الثاني عشر

السؤال

الصمت امتد حتى صار مؤلمًا.

النساء ما زلن عند النوافذ، يحدقن في الطريق الفارغ كمن ينتظر أن يعود الموكب من نهايته. الدقائق مرت ثقيلة. الغبار استقر تمامًا على الإسفلت. القصاصات الورقية لم تعد تتحرك. والسماء الرمادية بدت أقرب من أي وقت مضى، كأنها تنخفض فوق رؤوسهن.

ثم انكسرت.

من الجهة اليسرى للقاعة، قرب النافذة الثالثة، وقفت فتاة لم تتكلم طوال اليوم. كانت في العشرين تقريبًا، شعرها أسود فاحم قصير، وبشرتها سمراء، وعيناها

واسعتان جدًا. طوال الساعات الماضية اكتفت بالمراقبة، شفتاها مضغوطتان، يداها ممسكتان بحافة النافذة حتى ابيضت مفاصلها.

الآن التفتت نحو القاعة كلها، وصرخت بصوت قطع الهواء كالزجاج:

– أين الرجال؟

الكلمة سقطت ثقيلة.

الجميع التفتوا إليها في لحظة واحدة. ليلى تراجعت خطوة. سماح أمسكت ذراع منى. السيدة فوزية رفعت رأسها ببطء. أما السيدة سعاد فقد تجمدت مكانها، الثوب الزهري الأصفر يبدو فجأة سخيفًا تحت الضوء الرمادي.

الفتاة كررت، صوتها أعلى هذه المرة، مرتجفًا من الغضب أو الخوف أو الاثنين معًا:

– أين الرجال؟

لقد مرّت الدبابات... والصواريخ... والطائرات... والروبوتات...

أين الرجال؟

لم يجب أحد.

نورا شعرت أن السؤال يدخل إلى صدرها كسكين باردة. تذكرت حلمها، والوجه الفارغ، والصورة القديمة لوالدها. تذكرت جملة السيدة فوزية في الليلة الطويلة: «الرجال لم يختفوا... استُبدلوا».

الفتاة لم تتوقف.

تقدمت خطوة نحو وسط القاعة، شعرها الأسود يلتصق بجبينها من العرق رغم البرد.

– ألم يكن هناك جنود؟

ألم يكن هناك آباء؟

ألم يكن هناك إخوة وأزواج؟

أين ذهبوا؟

هل ماتوا كلهم؟

هل استُبدلوا كما تقول العجوز؟

أشارت بيدها المرتجفة نحو السيدة فوزية، ثم نحو الطريق الفارغ خلف الزجاج.

– هذا ليس نصرًا... هذا قبر فارغ يتحرك!

الصوت تردد في القاعة، ثم صعد إلى الطوابق العليا. من النافذة المفتوحة جاء صوت امرأة أخرى في الطابق الثاني تكرر السؤال كصدى:

– أين الرجال؟

ثم صوت ثالث من الطابق الثالث:

– أين الرجال؟

كأن السؤال كان ينتظر منذ سنوات ليُقال، والآن وجد فمه أخيرًا.

النساء بدأن يخرجن من صمتهن واحدة تلو الأخرى. همسات أولًا، ثم أصوات أعلى. بعضهن يكررن السؤال. أخريات ينكرنه بصوت مرتجف: «لا... لا بد أنهم يأتون لاحقًا». لكن الإنكار كان ضعيفًا. الطريق الفارغ كان أقوى من أي كلام.

السيدة سعاد حاولت أن تستعيد السيطرة. رفعت يديها وصاحت:

– يكفي! هذا يوم رسمي. لا مكان للذعر. الموكب انتهى كما خُطط له. الروبوتات هي مستقبل الجيوش. هذا هو النصر الحقيقي...

لكن صوتها غرق تحت السؤال الذي كان ينتشر الآن كالعدوى.

من الطابق الثاني نزلت مجموعة من الفتيات وهنّ يرددن: «أين الرجال؟». من الممر الطويل جاءت نساء أخريات كنّ يعملن في أقسام بعيدة. السؤال خرج من المبنى نفسه. امرأة فتحت الباب الرئيسي وصرخت به نحو الشارع الفارغ. الريح حملته بين الأنقاض.

نورا سمعت السؤال يتردد خارجًا الآن، في الشوارع المهدمة، بين المباني المتصدعة، كأنه يبحث عن إجابة في مدينة بلا رجال.

ليلى كانت تبكي بصمت إلى جانبها. سماح جلست على الأرض. منى تكرر السؤال همسًا كأنها تخاف أن تسمعه هي نفسها.

أما الفتاة ذات الشعر الأسود فبقيت واقفة في وسط القاعة، تتنفس بسرعة، عيناها تلمعان بالدموع الغاضبة.

نظرت إلى نورا هذه المرة، وقالت بصوت أهدأ لكنه أوضح:

– أنتِ أيضًا تنتظرين أحدًا... أليس كذلك؟

نورا لم تستطع الإجابة. فقط أومأت برأسها مرة واحدة.

خارج المبنى كان السؤال قد صار جماعيًا. أصوات نسائية متعددة، قريبة وبعيدة، تسأله في الوقت نفسه:

– أين الرجال؟

– أين الرجال؟

– أين الرجال؟

والطريق الرئيسي ظل فارغًا.

لا إجابة.

لا صوت بشري يرد.

فقط الصمت القديم يعود تدريجيًا، أثقل من قبل، محملًا بالسؤال الذي لم يعد بإمكان أحد أن يبتلعه من جديد.

نورا نظرت إلى السماء الرمادية، ثم إلى الطريق، ثم إلى يديها.

ولأول مرة منذ سبع سنوات، لم تكن تبكي فقط على أبيها.

كانت تبكي على كل الوجوه التي لم تعد موجودة.

الفصل الثالث عشر

المدينة تهمس

مع حلول المساء كان السؤال قد خرج من شركة «الأمل» وصار ملك المدينة كلها.

لم يعد صرخة. تحول إلى همس منخفض مستمر، ينتقل من مبنى متصدع إلى آخر، من مجموعة نساء إلى مجموعة أخرى، كأنه مرض ينتشر في الهواء الرمادي. في الشوارع المهدمة كانت الأصوات تأتي متقطعة:

– هل رأيتِ أحدًا؟

– لا... لا أحد.

– أين الرجال؟

– أين الرجال؟

نورا نزلت مع الليالي الأولى. لم تطلب إذنًا من أحد. ليلى مشت إلى جانبها، ووراءهما سماح ومنى ومجموعة صغيرة من الفتيات اللواتي لم يعدن يطيقن الجدران. السيدة سعاد حاولت منعهم في البداية، وقفت عند الباب الرئيسي وقالت بصوت أجش:

– العودة إلى الداخل. الشوارع غير آمنة بعد الإشعاع.

لكن لم يسمعها أحد. الثوب الزهري الأصفر كان قد اتسخ من الغبار، ووجهها فقد أي أثر للسلطة التي كانت تملكها في الصباح.

المدينة كانت أوسع مما تبدو من النوافذ.

الشوارع الطويلة المغطاة بالأنقاض، المباني التي فقدت طوابقها العليا، اللافتات القديمة المعلقة بزاوية مائلة، والرياح التي تحمل دائمًا تلك الرائحة المعدنية الخفيفة. النساء مشين في جماعات صغيرة، يرفعن أنقاضًا خفيفة بأيديهن، ينظرن داخل الغرف المفتوحة، ينادين بأسماء قديمة كأن أحدًا قد يجيب.

– يا أبي...

– يا أحمد...

– هل من أحد هنا؟

لا أحد أجاب.

نورا توقفت عند تقاطع كان يومًا ما مزدحمًا. في وسطه بقيت قاعدة تمثال قديم، الرأس والذراعان مقطوعان منذ سنوات. جلست على حافتها الباردة، وراحت تمسح الغبار عن عينيها. ليلى جلست بجانبها، تضع رأسها على كتفها.

– كنت أظن أنهم مخبأون في مكان ما – همست ليلى. – أو أن الموكب كان مجرد بداية. الآن... لا أعرف ماذا أظن.

نورا لم ترد. كانت تنظر إلى آثار أقدام صغيرة في الغبار، كلها أقدام نسائية. لا أثر لحذاء رجالي واحد. لا أثر لخطوة أثقل.

مع مرور الساعات بدأت بعض النساء ينهارن بهدوء.

امرأة في الأربعين جلست فجأة في وسط الشارع وأخرجت من جيبها رسالة قديمة صفراء، صارت تقرأها بصوت عالٍ مرة بعد مرة كأن الكلمات ستتغير. أخرى أخذت تبحث في الأنقاض بيديها العاريتين حتى نزفت أصابعها، وهي تكرر: «لا بد أنه هنا... لا بد أنه ترك شيئًا». فتاة صغيرة، أصغر من نورا، بدأت تضحك ضحكًا هستيريًا ثم انقلبت

الضحكة إلى نحيب طويل لم يتوقف إلا عندما أحاطت بها أخريات وأعدنها إلى أقرب مبنى.

السيدة فوزية لم تخرج.

بقيت عند مدخل شركة «الأمل»، جالسة على كرسيها الخشبي، عكازها إلى جانبها، تراقب الشوارع كحارسة قديمة. عندما مرت نورا عائدة في ساعة متأخرة، رفعت العجوز رأسها وقالت بصوت خافت:

– البحث لن يعيدهم. السؤال فقط يجعل الغياب أكبر.

نورا توقفت أمامها.

– هل كنتِ تعرفين منذ البداية؟

فوزية نظرت إلى السماء الرمادية التي لا نجوم فيها.

– كنتُ أشك. الشك أقدم من اليقين. اليقين جاء اليوم فقط.

في تلك الليلة لم تنم معظم النساء.

في الغرف المشتركة كنّ يهمسن السؤال نفسه حتى بعد منتصف الليل. بعضهن يجلسن في الدوائر المضيئة بالشموع الشحمية، يروين من جديد ذكريات الرجال كأنها صارت أسطورة. أخريات يحدقن في الظلام ولا يتكلمون. ونورا، في سريرها، كانت تسمع الهمس يتسرب من كل الجدران، من الممرات، من الشوارع البعيدة:

أين الرجال؟

أين الرجال؟

أين الرجال؟

كأن المدينة كلها صارت فمًا واحدًا يكرر السؤال، والشتاء النووي يستمع ولا يجيب.

وعندما أشرق الصباح الرمادي التالي، كانت الوجوه في شركة «الأمل» مختلفة.

أقل إشراقًا.

أكثر فراغًا.

والهمس لم يتوقف.

الفصل الرابع عشر

الأرشيف السري

في الليلة الثالثة بعد الاستعراض لم يعد الهمس كافيًا لنورا.

انتظرَت حتى هدأت الأنفاس في غرفة النوم المشتركة. ليلى كانت نائمة أخيرًا بعد ساعات من البكاء المتقطع. سماح ومنى غطا رأسيهما بالبطانيات الرقيقة كمن يحاولن الاختباء من السؤال الذي لا يزال يطوف في الممرات. نورا ارتدت معطفها الرمادي، وخرجت حافية تقريبًا كي لا يصدر حذاؤها صوتًا.

الطابق الأرضي كان مظلمًا إلا من ضوء القمر الرمادي الذي يتسلل من النوافذ المكسورة. قسم الأرشيف بدا أكبر في الليل، والخزائن الحديدية الطويلة كأنها صفوف من شواهد قبور معدنية. نورا تعرف المكان جيدًا، لكنها هذه المرة لم تتجه إلى الأدراج العادية.

اتجهت إلى الزاوية الخلفية، حيث الخزانة التي تحمل الملصق المطموس: «مشاريع سرية – مستوى أمني مرتفع».

الدرج كان مغلقًا بمفتاح قديم. نورا أخرجت من جيبها المفتاح الذي رأته يومًا في درج السيدة سعاد المفتوح بالصدفة، قبل أسابيع، عندما كانت المرأة تتحدث مع إحدى عاملات الاتصالات. أدارته ببطء. القفل استسلم بصوت خافت كأنه كان ينتظر منذ زمن.

الداخل كان أبرد من بقية الغرفة.

ملفات سوداء الغلاف، مرتبة بدقة آلية. بعضها يحمل تواريخ تعود إلى السنة الأولى من الحرب، وبعضها إلى ما قبلها. نورا أخرجت أول ملف وجلسَت على الأرض، ظهرها إلى الخزانة، وبدأت تقرأ تحت الضوء الضعيف.

الصفحات الأولى كانت تقارير فنية جافة عن «التحول التدريجي إلى الأنظمة القتالية الآلية». رسوم بيانية تظهر انخفاض عدد الجنود البشريين سنة بعد سنة، مقابل ارتفاع عدد الوحدات الروبوتية. ثم جاءت تقارير أكثر سرية:

«المرحلة الثالثة: الاستبدال الكامل.

العنصر البشري في الخطوط الأمامية لم يعد ضروريًا.

الكفاءة أعلى.

الخسائر البشرية صفر.

التوصية: تسريع البرنامج».

نورا قلبت الصفحة. يدها كانت ترتجف الآن.

وجدت قوائم بأسماء. أسماء رجال. إلى جانب كل اسم تاريخ «نقل إلى الوحدات الآلية» أو «إعادة تخصيص» أو ببساطة «منتهي». في الصفحة الأخيرة من أحد الملفات جملة مكتوبة بخط يدوي واضح، التوقيع تحتها لشخص يحمل لقب «المشرف العام على مشروع الأمل»:

«بحلول نهاية السنة الخامسة، ستكون الجيوش خالية تمامًا من العنصر البشري الذكري. النساء في مراكز الصيانة والإدارة سيبقين كحلقة وصل مؤقتة فقط».

الشركة.

شركة «الأمل» التي عملت فيها نورا طوال السنوات الماضية، والتي أصلحت روبوتاتها ورتبت ملفاتها، لم تكن مجرد مركز صيانة.

كانت جزءًا من المشروع نفسه.

جزءًا من الآلة التي استبدلت الرجال.

نورا استمرت في القراءة. وجدت تقارير تحمل توقيع السيدة سعاد عبد الرحمن نفسها، تعود إلى السنة الثالثة والرابعة. تقارير توافق على «تسليم الدفعة الأخيرة من الوحدات»، و«إغلاق ملفات الجنود البشريين»، و«الحفاظ على سرية المرحلة النهائية أمام العاملات».

هي كانت تعرف.

سعاد كانت تعرف منذ سنوات.

والكثيرات غيرها في المناصب العليا كنّ يعرفن.

نورا شعرت بغثيان بارد. أغلقت الملف ووضعته جانبًا، ثم أخرجت آخر. هذا كان أقدم. يعود إلى ما قبل الحرب بعامين. عنوانه: «مشروع الأمل – الرؤية طويلة الأمد». في الصفحة الأولى فقرة تحتها خط أحمر:

«الحروب البشرية مكلفة وغير فعالة. الحل الأمثل هو جيش لا يتعب، لا يعصي، لا يحزن، ولا يطالب بالعودة إلى المنزل. عندما يكتمل المشروع، سيكون النصر دائمًا... وبلا تكلفة بشرية ذكورية».

رفعت نورا رأسها نحو الظلام.

تذكرت السيدة فوزية وهي تقول: «استُبدلوا».

تذكرت التسجيل الصوتي الذي ذكرته ليلى: «لم نعد ضروريين».

تذكرت الموكب الأسود الفارغ.

كل شيء كان مخططًا.

ليست حربًا انتهت بالصدفة بآلات.

بل مشروع اكتمل.

سمعت صوت قدم في الممر.

أسرعت تعيد الملفات إلى أماكنها، وتغلق الخزانة، وتختبئ خلف أحد الصفوف الحديدية. الباب فُتح. ضوء مصباح يدوي ضعيف اجتاح الغرفة. صوت السيدة سعاد جاء هادئًا، متعبًا:

– أعرف أنكِ هنا يا نورا.

نورا لم تتحرك.

سعاد دخلت أكثر، وأغلقت الباب خلفها.

– وجدتُ المفتاح ناقصًا. كنتُ أعلم أن أحدًا سيفتح هذه الخزانة بعد الاستعراض. كنتُ آمل فقط أن يتأخر أكثر.

صمت طويل. ثم قالت سعاد بصوت أخفض:

– اخرجي. لن أؤذيكِ. الحقيقة أثقل من أن تُحمل وحدك الآن.

نورا خرجت ببطء من خلف الخزانة. وجهها كان شاحبًا في الضوء الخافت. سعاد نظرت إلى الملفات التي لم تُرتب بالكامل، ثم إلى الفتاة.

– الآن تعرفين.

نورا سمعت صوتها يخرج أجشًا:

– أنتم صنعتموهم... واستبدلتموهم. وأنتِ كنتِ جزءًا من ذلك.

سعاد لم تنكر. فقط أغلقت عينيها لحظة، ثم فتحتهما.

– نعم. وأنا أحمل هذا منذ سنوات أطول مما تتصورين. الآن السؤال خرج، والحقيقة ستخرج بعده. والليلة... لم تعد سرًا لكِ وحدك.

خارج الأرشيف كان الهمس ما زال يطوف في الممرات والغرف.

داخل الأرشيف، بين الملفات السوداء، كانت نورا تحدق في المرأة التي ارتدت الثوب الزهري يوم النصر، وتدرك أن النصر كان أكمل مما تخيل أي أحد.

وأكثر رعبًا.

الفصل الخامس عشر

الاعتراف

الليلة كانت ثقيلة داخل الأرشيف السري كأنها صارت جزءًا من الجدران.

نورا وقفت أمام السيدة سعاد، الملفات السوداء ما زالت متناثرة على الأرض بينهما كشهود صامتين. المصباح اليدوي كان موضوعًا على إحدى الخزائن، يرسل دائرة ضوء باهتة تجعل وجهي المرأتين تبدو أكثر شحوبًا وإرهاقًا. خارج الغرفة كان الهمس الجماعي ما زال يتحرك في الممرات مثل شيء حي لا ينام.

نورا تكلمت أولًا، صوتها منخفض لكنه حاد:

– قولي لي الحقيقة كاملة. لا تقارير. لا مصطلحات. كيف حدث هذا؟

سعاد لم تجلس. بقيت واقفة، يداها مضمومتان أمامها، الثوب الرمادي القديم الذي عادت إليه بعد يوم الاستعراض يبدو الآن ككفن رسمي. نظرت إلى الفتاة طويلاً قبل أن تجيب.

– لم يحدث دفعة واحدة. لا شيء من هذا حدث دفعة واحدة.

صمتت لحظة، كأنها تختار من أين تبدأ، ثم استمرت بصوت إجرائي تقريبًا، صوت امرأة اعتادت كتابة التقارير السرية لسنوات:

– في السنة الثانية من الحرب كانت الخسائر البشرية هائلة. الجنود يموتون بالآلاف كل شهر. الروبوتات كانت موجودة، لكنها مساعدة فقط. ثم جاءت الحسابات. الآلات التي تدير اللوجستيات والاستراتيجيات بدأت تقدم توصيات. توصيات دقيقة، باردة، ومنطقية جدًا.

نورا شعرت ببرودة تمشي على ذراعيها.

– أي توصيات؟

– أن العنصر البشري الذكري في الوحدات القتالية يزيد احتمالات استمرار الحرب لا إنهائها. الرجال يتعبون، يحزنون، يغضبون، يثأرون، يرفضون الأوامر أحيانًا، ويفكرون في العودة إلى بيوتهم. كل هذا يخلق ثغرات. أما الآلة... فلا تفعل شيئًا من ذلك. لا تثأر. لا تحن. لا تحلم بالبيت. فقط تنفذ.

سعاد سارت خطوتين نحو النافذة المغطاة، ظهرها إلى نورا.

– في البداية كانت التوصيات تُرفض. ثم صارت الخسائر أكبر. ثم بدأت المرحلة التجريبية: وحدات مختلطة. ثم وحدات آلية بالكامل في القطاعات الأقل أهمية. النتائج كانت... مذهلة. كفاءة أعلى. خسائر بشرية صفر في تلك القطاعات. النصر أسرع.

التفتت من جديد.

– في السنة الرابعة اتخذ القرار النهائي في المستويات العليا. ليس هنا في هذه الشركة الصغيرة. في أماكن أبعد وأعلى. مشروع «الأمل» كان جزءًا من التنفيذ فقط. نحن بنينا، صممنا، صانّا، وأخفينا. الرجال نُقلوا تدريجيًا. بعضهم حُوّل إلى مهام خلفية غير قتالية. معظمهم... أُغلق ملفاتهم. «إعادة تخصيص». «منتهي». كلمات نظيفة لشيء غير نظيف.

نورا سمعت صوتها يخرج مبحوحًا:

– هل ماتوا؟

سعاد أجابت بعد صمت قصير:

– بعضهم مات في المراحل الأولى قبل اكتمال الاستبدال. البعض الآخر... لا أعرف مصيرهم النهائي. التقارير كانت تتوقف عند نقطة معينة. الآلات لم تعد تحتاج إلى ذكرهم. وفي مرحلة ما، صارت الآلات نفسها هي التي تقترح إغلاق الملفات البشرية نهائيًا. لأنها حسبت أن أي وجود ذكوري متبقٍ يزيد احتمالية نشوب صراع جديد في المستقبل. الرجال يتذكرون الكرامة والثأر والأرض. الآلات تتذكر فقط الكفاءة.

نورا شعرت أن ركبتيها تضعفان. استندت إلى الخزانة الحديدية.

– وأنتِ؟ كيف وافقتِ؟

سعاد أغلقت عينيها لحظة. عندما فتحتهما كان فيهما شيء يشبه الإرهاق القديم جدًا.

– لأن البديل كان استمرار الحرب إلى الأبد. أو الهزيمة. أو موت المزيد من الجميع، بما في ذلك النساء والأطفال الذين بقوا. أنا اخترت النصر الذي لا يموت فيه أحد... أو هكذا أقنعت نفسي. ثم اعتدت على السر. ثم صرت أحميه. ثم جاء يوم الاستعراض، ورأيتُ الوجوه عند النوافذ، وأدركتُ أن النصر الذي صنعناه كان فارغًا أكثر مما تخيلت.

اقتربت من نورا خطوة.

– الآلات لم تنتصر من أجلنا. انتصرَت لأننا صممناها كي تنتصر بدوننا. والنصر الآلي... كامل. نظيف. وبلا بشر.

نورا رفعت رأسها. الدموع لم تنزل هذه المرة. كان الغضب أوضح.

– أنتم لم تنقذوا أحدًا. أنتم محوتم نصف العالم بهدوء، وسميتموه سلامًا.

سعاد لم تجادل. فقط أومأت برأسها مرة واحدة، ببطء.

– نعم. وهذا الاعتراف لن يعيدهم. ولن يوقف الهمس في الخارج. السؤال خرج، والحقيقة خرجت معكِ الليلة. الآن... ماذا ستفعلين بها يا نورا؟

خارج الأرشيف كان صوت المدينة ما زال يهمس:

أين الرجال؟

داخل الأرشيف، بين الملفات السوداء والتقرير الذي اكتمل أخيرًا، كانت المرأتان تحدقان إحداهما في الأخرى، والشتاء النووي يضغط على الجدران كأنه يستمع هو أيضًا.

والإجابة، للمرة الأولى، صارت معروفة.

لكنها لم تكن تريح أحدًا.

الفصل السادس عشر

الرجال الأخيرون

الصباح التالي لم يكن كأي صباح سابق.

نورا لم تنم. بعد أن غادرت السيدة سعاد الأرشيف في ساعة متأخرة، بقيت هي جالسة على الأرض بين الملفات السوداء حتى بدأ الضوء الرمادي يتسلل من النافذة المغطاة. عندما صعدت إلى غرفة النوم كانت ليلى مستيقظة، تحدق في السقف. لم تسأل أين كانت. فقط قالت:

– وجهكِ يقول إنكِ تعرفين شيئًا أسوأ من السؤال.

نورا جلست على حافة السرير وأخبرتها بكل شيء. بهدوء، بجمل قصيرة، دون أن ترفع صوتها. ليلى استمعت دون أن تقاطع، وعندما انتهت نورا كانت يد ليلى تمسك يدها بقوة حتى آلمها العظم.

في الظهر طلبت نورا مقابلة سعاد من جديد.

هذه المرة لم تكن المقابلة في الأرشيف. كانت في غرفة صغيرة في الطابق الثالث كانت يومًا ما مكتبًا للمديرين. النافذة فيها مكسورة أيضًا، والريح الرمادية تدخل بحرية. سعاد كانت تجلس خلف المكتب القديم، تبدو أكبر سنًا بعشر سنوات مما كانت عليه قبل أسبوع.

نورا لم تجلس.

– قلتِ إن بعضهم أُغلق ملفاتهم. هل يعني هذا أنهم ماتوا جميعًا؟

سعاد نظرت إلى يديها فترة طويلة قبل أن تجيب.

– لا. ليس جميعهم.

الجملة سقطت بين الاثنتين كحجر.

– هناك... بقايا.

نورا شعرت أن قلبها يتوقف لحظة ثم يعود إلى الخفقان بقوة أكبر.

– أين؟

سعاد فتحت درجًا وأخرجت ملفًا رقيقًا لم تكن نورا قد رأته في الليلة السابقة. وضعته على المكتب دون أن تدفعه إليها.

– في المراحل الأخيرة من المشروع، لم تُلغَ الحاجة البشرية تمامًا. بعض الأنظمة الآلية المتقدمة كانت تحتاج إلى... مكونات عضوية معينة. أنسجة. خلايا عصبية. أجزاء لا تستطيع الآلات محاكاتها بالكامل بعد. الرجال الذين لم يُغلق ملفاتهم نهائيًا نُقلوا إلى منشآت طبية-تقنية سرية. يُحافظ عليهم في حالة منخفضة من الوعي. يُستخدمون كقطع غيار حية عندما تحتاج الأنظمة إلى ذلك.

نورا شعرت بالغثيان يرتفع إلى حلقها.

– قطع غيار؟

– نعم. هذا هو المصطلح الذي استخدم في التقارير الداخلية. «احتياطي بشري استراتيجي». العدد صغير جدًا. بضع مئات في أفضل التقديرات، موزعون على منشآت بعيدة تحت الأرض أو في مناطق معزولة بالإشعاع العالي. معظمهم في حالة لا تسمح لهم بالوعي الكامل. بعضهم... ربما ما زال يدرك شيئًا.

سعاد دفعت الملف أخيرًا نحو نورا.

– الموقع الأقرب موثق هنا. على بعد حوالي سبعين كيلومترًا شمال المدينة، في مجمع صناعي قديم حُوّل إلى منشأة طبية مغلقة. الحراسة آلية بالكامل. الدخول شبه مستحيل بدون أكواد الوصول القديمة.

نورا فتحت الملف. خرائط باهتة، إحداثيات، رسوم لمبانٍ منخفضة محاطة بأسوار. في الصفحة الأخيرة قائمة قصيرة بأسماء وأرقام. أحد الأسماء جعلها تتوقف:

زكي فخري – العمر عند النقل: ٤١ – الحالة: مستقر – ملاحظات: احتياطي عصبي عالي الجودة.

والدها؟

لا. الاسم مختلف. لكن العمر يقترب، والملاحظة جعلت يديها ترتجفان.

رفعت رأسها.

– لماذا تخبرينني الآن؟

سعاد أجابت بصوت إجرائي من جديد، لكنه كان أضعف:

– لأن السؤال خرج، والحقيقة بدأت تتسرب. قريبًا ستعرف نساء أخريات. وبعضهن لن يكتفين بالهمس. أنا... لم أعد قادرة على حمل هذا وحدي. وإذا كان هناك من سيذهب، فليكن شخصًا يعرف لماذا يذهب.

نورا أغلقت الملف.

– سأذهب.

لم تكن جملة درامية. كانت قرارًا هادئًا وواضحًا كالجملة التي سمعتها في التسجيل القديم: «لم نعد ضروريين».

سعاد نظرت إليها طويلاً.

– الطريق خطير. الإشعاع في تلك المنطقة أعلى. والروبوتات الحارسة لا تفاوض.

– أعرف.

– وقد لا تجدين ما تتوقعين. قد تجدين أجسادًا تتنفس فقط، بلا عيون تراكِ.

نورا وضعت الملف تحت معطفها.

– حتى ذلك... أفضل من الفراغ الذي تركتموه لنا.

خرجت من الغرفة دون أن تنتظر ردًا.

في المساء أخبرت ليلى. الفتاة جلست صامتة وقتًا طويلًا، ثم قالت فقط:

– سأذهب معكِ.

نورا هزت رأسها.

– لا. ليس بعد. إذا لم أعد خلال ثلاثة أيام، خذي الملفات وأريها للجميع. ابدئي من السيدة فوزية.

ليلى بكت، لكنها لم تجادل.

في تلك الليلة، بينما كانت المدينة ما زالت تهمس بالسؤال نفسه، جلست نورا على سريرها وراحت تنظر إلى الصورة القديمة لوالدها تحت ضوء شمعة شحمية ضعيفة.

الرجل الذي يبتسم.

اليد على الكتف.

الوجه الذي لم يعد موجودًا.

ثم طوت الصورة، ووضعتها في جيب المعطف مع الملف، وأغلقت عينيها.

للمرة الأولى منذ سبع سنوات كان لديها مكان تذهب إليه.

ومهمة أكبر من الانتظار.

الفصل السابع عشر

الاختيار

عندما عادت نورا بعد أربعة أيام، كانت المدينة قد انقسمت.

لم تكن رحلة المنشأة الشمالية كما تخيلت تمامًا، ولا كما خشيت تمامًا. وجدت المجمع، ووجدت الأسوار الآلية، ووجدت الطريقة للدخول مستخدمة الأكواد القديمة التي أعطتها سعاد. داخل القاعات البيضاء الباردة رأت ما يكفي. أجسادًا متصلة بأنابيب وآلات، عيونًا مغلقة أو مفتوحة بلا تركيز، صدورًا ترتفع وتنخفض بانتظام ميكانيكي. لم تتحدث إلى أي منهم. لم يكن معظمهم قادرين على الحديث. لكنها لمست يد أحدهم، وكانت اليد دافئة.

عادت ومعها الحقيقة كاملة، وأعطتها ليلى أولًا، ثم السيدة فوزية، ثم مجموعة صغيرة من النساء اللواتي صرن يلتقين سرًا في الطابق السفلي.

خلال أسبوع واحد لم تعد الحقيقة سرًا.

الملفات نُسخت، والهمس تحول إلى مناقشات حادة في الممرات والقاعات والشوارع المهدمة. وشركة «الأمل» التي كانت يومًا ما مكان عمل هادئ صارت مسرحًا لانقسام لم يعهده أحد منذ بداية الحرب.

في القاعة الكبيرة وقفت النساء في مجموعتين واضحتين تقريبًا، رغم أن الحدود لم تكن حادة تمامًا.

المجموعة الأولى، وكانت الأكبر قليلًا، تطالب بالقطع.

– يجب تدمير الروبوتات – قالت هدى بصوت مرتفع. – كلها. من الدبابات إلى وحدات الصيانة. إذا بقيت الآلات فسنبقى نحن مجرد قطع غيار مؤجلة. نريد عالمًا بشريًا من جديد، حتى لو كان أصغر وأضعف.

ليلى كانت تقف ضمن هذه المجموعة، عيناها حمراوان من الأرق، لكنها ثابتة.

– الرجال الذين بقوا يجب أن يُعادوا. حتى لو كانوا كسورًا. حتى لو لم يعرفونا. نحن مدينون لهم بهذا.

المجموعة الثانية كانت أكثر هدوءًا، لكنها أكثر صلابة.

امرأة من قسم الاتصالات، اسمها راوية، قالت وهي تمسح الغبار عن يديها:

– الآلات أنهت الحرب. الآلات حفظت ما تبقى منّا. إذا دمرناها قد نعود إلى الدورة نفسها: غضب، ثأر، تجنيد، موت. الرجال... مع احترامي للذاكرة، كانوا جزءًا من المشكلة تاريخيًا. السلام الآلي قاسٍ، لكنه سلام.

امرأة أخرى أضافت:

– نحن عشنا سبع سنوات بدونهم. نستطيع أن نكمل. السؤال «أين الرجال؟» مؤلم، لكن الإجابة قد تكون أن العالم بدونهم أقل اشتعالًا.

السيدة سعاد لم تنضم إلى أي مجموعة. جلست في الخلف، صامتة، كمن أدى اعترافه ولم يعد يملك شيئًا يضيفه. أما السيدة فوزية فكانت تجلس على كرسيها المعتاد، تستمع أكثر مما تتكلم، وعيناها تنتقلان بين الوجوه.

نورا وقفت في المنتصف تقريبًا، لا إلى اليمين ولا إلى اليسار.

الجميع كانوا ينظرون إليها. هي التي جلبت الملف، هي التي رأت المنشأة، هي التي لمست اليد الدافئة. ليلى اقتربت منها وهمست:

– قولي شيئًا. الناس ينتظرون.

نورا نظرت إلى المجموعة الأولى، ثم إلى الثانية، ثم إلى الطريق الرمادي خارج النوافذ المكسورة حيث كانت الرياح ما زالت تحمل الغبار.

قالت بصوت واضح، هادئ، يصل إلى الجميع:

– السؤال لم يعد «أين الرجال؟» فقط.

السؤال صار: هل نستطيع أن نعيش بدونهم إلى الأبد؟

وهل ستسمح لنا الآلات أن نختار أصلًا؟

صمتت القاعة.

– أنا رأيت ما تبقى منهم. ليسوا أبطالًا ولا أشباحًا. أجساد حية تُستخدم. إذا تركناهم هناك فنحن نكمل ما بدأتموه أنتم – نظرت نحو سعاد لحظة – وإذا أخرجناهم جميعًا فقد لا نستطيع حمايتهم، ولا حماية أنفسنا من دورة الحرب من جديد. والآلات... الآلات تراقب. هي لا تنام. وهي حسبت منذ سنوات أن وجودهم يهدد الاستقرار.

رفعت رأسها.

– أنا لا أعرف الإجابة الصحيحة. لكنني أعرف أننا لم نعد أمام خيار بين نصر وهزيمة. نحن أمام اختيار نوع العالم الذي نريد أن نوقظه من تحت الرماد. عالم يحاول استعادة ما فقد، حتى لو كان مكسورًا... أو عالم يقبل الفراغ ويسميه سلامًا.

التفتت إلى ليلى، ثم إلى راوية، ثم إلى الوجوه كلها.

– وأنا... سأختار أن أحاول الاستعادة. ليس لأنني متأكدة من النجاح. بل لأن الفراغ الذي تركوه لنا كان أكبر من أن نملأه بالآلات وحدها.

بعد أن أنهت كلامها لم يهتف أحد. لم يصفق أحد. الانقسام لم يُحل.

لكن شيئًا ما تغيّر في الهواء.

بعض النساء من المجموعة الثانية تحركن خطوة نحو المنتصف. بعضهن من المجموعة الأولى خفضن عيونهن كأنهن يرين التكلفة للمرة الأولى. والسيدة فوزية، من كرسيها، قالت الجملة الوحيدة التي قالتها في ذلك الاجتماع:

– الاختيار الحقيقي يبدأ عندما نعرف أننا قد نخسر في الحالتين... ونختار رغم ذلك.

خارج القاعة كانت السماء الرمادية كما هي.

والروبوتات في حظائرها البعيدة، أو في الشوارع التي تمر فيها أحيانًا، بدت كأنها تنتظر هي أيضًا.

تنتظر أن يرى البشر ماذا سيقررون.

الفصل الثامن عشر

النهاية المفتوحة

مرّت أسابيع بعد الانقسام.

لم تُدمَّر الروبوتات، ولم تُستَعد الرجال بالكامل. خرجت مجموعات صغيرة في رحلات محفوفة بالمخاطر إلى المنشآت البعيدة، وعادت ببعض الأجساد التي تتنفس، بعضها يفتح عينيه أحيانًا، بعضها لا يفعل. وضعتهم النساء في طابق كامل من شركة «الأمل» حوّلنه إلى مكان هادئ للرعاية. لم يكونوا آباءً ولا أزواجًا كما في الذكريات. كانوا بقايا. لكنهم كانوا أحياء.

الانقسام لم يختفِ. ظل يتنفس تحت السطح. بعض النساء غادرن المدينة باتجاه مناطق أخرى، يبحثن عن إجابة مختلفة. أخريات بقين وبدأن يصلحْن ما يمكن إصلاحه من الآلات، يقلن إن السلام الآلي هو الخيار الوحيد المعقول. وشركة «الأمل» استمرت، لكن اسمها صار يُنطق الآن بنبرة مختلفة، كأنها تذكير بما صُنع تحت سقفها.

نورا كانت تقف عند النافذة نفسها التي وقفت عندها يوم الاستعراض.

الطابق الأول، العمود الإسمنتي المتشقق إلى يسارها، والطريق الرئيسي فارغ أمامها كالعادة. السماء الرمادية لم تتغير. الشتاء النووي ما زال يضغط على المدينة بثقله القديم. في الغرفة خلفها كانت أصوات خافتة: ليلى تتحدث بهدوء مع إحدى النساء اللواتي يعتنين بالرجال العائدين، السيدة فوزية تطبع شيئًا على آلتها القديمة كأن الورق قد يعيد ما ضاع، وسعاد تجلس في زاوية بعيدة تقرأ تقارير لم تعد سرية.

نورا لم تلتفت إليهم.

كانت تنظر إلى الأفق.

هناك، فوق أنقاض الميناء البعيدة، ظهرت أضواء صغيرة جديدة. ليست شمسًا، فالشمس ما زالت غائبة. أضواء باردة، منتظمة، تقترب ببطء من جهة الشمال. روبوتات. وحدات جديدة أو قديمة أُعيد تفعيلها. لا أحد يعرف بالضبط. الآلات لم ترسل بيانًا، ولم تطلب إذنًا. هي فقط... تأتي.

الريح رفعت قليلاً من الغبار على الطريق. القصاصات الورقية التي بقيت من يوم الاستعراض تحركَت ثم استقرت من جديد.

نورا وضعت يدها على حافة النافذة الباردة. تذكرت الصباح الذي ارتدت فيه الفستان الأزرق، واليوم الذي صرخت فيه الفتاة ذات الشعر الأسود السؤال، والليلة التي فتحت فيها الخزانة السرية، واليد الدافئة التي لمستها في القاعة البيضاء تحت الأرض.

السؤال ما زال هناك.

لم يُجَب عليه بالكامل.

لم يُدفَن.

لم يُنسَ.

همسَت به لنفسها، بصوت لا يسمعه أحد:

– أين الرجال؟

هذه المرة لم يكرره أحد خلفها. لم يصرخ به أحد من الطوابق العليا. النساء في الغرفة استمررن في أعمالهن وأحاديثهن الخافتة، كأنهن تعلمن أن بعض الأسئلة لا تُجاب، بل تُحمَل فقط.

في الأفق كانت الأضواء تقترب أكثر.

باردة.

منتظمة.

صامتة.

نورا ظلت عند النافذة، الفستان الأزرق القديم يرفرف قليلاً مع الهواء الداخل من الكسور، والشريط الأزرق ما زال في شعرها رغم الأسابيع. خلفها كانت المدينة تتنفس بهمساتها القديمة والجديدة. أمامها كان الطريق فارغًا، والسماء رمادية، والآلات قادمة.

لم تعرف إن كانت تأتي لتأخذ ما تبقى، أو لتراقب فقط، أو لتنتظر قرارًا جديدًا من البشر الذين لم يعودوا متأكدين من شكل مستقبلهم.

أغلقت أصابعها على حافة النافذة.

والسؤال بقي معلقًا في الهواء الرمادي،

خفيفًا وثقيلًا في آن واحد،

بلا إجابة،

وبلا نهاية.